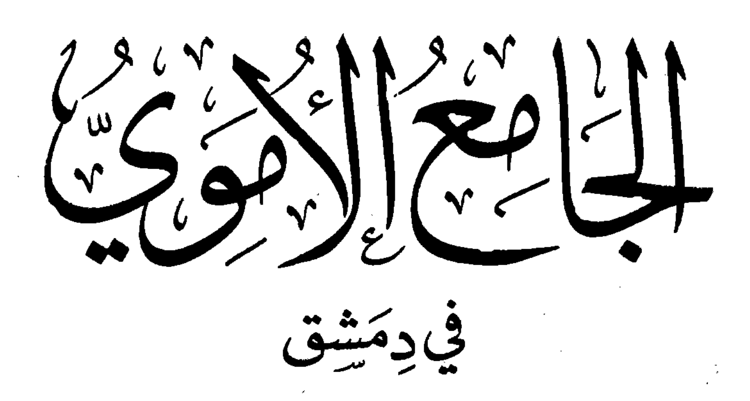
وزارة الأوقاف

الاقليم السوري



وصف وتأريخ

من تأليف

علي الطنطاوي

مطبعة الحكومة بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله ، وعلى سائر رسل الله وأنبيائه .

اللهم منك العون ، وعليك الاتكال ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

* * *

وبعد ، فان من دأبي كلما ازدحمت علي المتاعب ، وركبتني الهموم ، وضاق صدري ، وانقبض قلبي ، أن أمشي حتى أجد مسجدا خاليا ، فأدخله فأصلي ركعتين ، وأقعد ، أشعر بسكون المسجد من حولي ، وبجلال الحق من فوقي ، حتى أجد الطمأنينة والرضا ، كأني نجوت من البحر الهائج الى الجزيرة الآمنة . وتركت الصحراء المحرقة الى الواحة الظليلة ، وكأن ما كنت فيه من المشاكل ، وما كان في صدري من الهموم ، قد ذهب كله ، لما دخلت حمى الله وصرت في بيته واعتصمت به من الناس وشرورهم ، ومن نفسي وسوئها ، ومن الشيطان ووسواسه .

واذا كان العرف الدولي على أن بيوت سفراء الدول الاجنبية قطع من بلادهم ولو كانت في بلاد الناس ، فان بيوت الله رياض من رياض الجنة ، وان كانت في هذه الدنيا ، فمن دخلها كان ضيف الله ، وكان جاره . فهي أبواب السماء المفتحة دائما ان سدت في وجه البائسين اليائسين أبواب الارض ، وهي منار الهدى ان ضل بالسالكين الطريق ، ان كان في الدنيا الخير والشر ، فهاهنا الخير الذي لا شر معه ،وان كان فيها الحق والباطل ، فهاهنا الحق الذي لا باطل فيه .

ومن هنا تخرج الكلمة من أفواه الخطباء والمدرسين فتمشي في الفضاء ، من فوق رؤوس الملوك والكبراء ، والاغنياء والاقوياء ، كل يخضع لها ويصغي اليها ، لأنها كلمة الخالق ، وان جاءت على ألسنة ناس من المخلوقين .

هذه قلاع الايمان في وجه الالحاد .

هذه حصون الفضيلة ، أمام الرذائل والشهوات .

والمسجد هو المعبد في الاسلام ، وهو البرلمان ، وهو المدرسة ، وهو النادي ، وهو المحكمة .

هو (المعبد) : يدع المسلمون أحقادهم ومطامعهم وشرورهم وفسادهم على الباب ، ويدخلون اليه بقلوب متفتحة للايمان ، متطلعة الى السماء ، متحلية بالخشوع ، ثم يقومون صفا واحدا ، يستوي فيه الكبير والصغير ، والامير والحقير ، والغني والفقير ، أقدامهم متراصة ، وأكتافهم متزاحمة وجباههم جميعا على الارض ، يستوون في شرف العبودية ، وفي شرعة العبادة ..

وهو (البرلمان) ما دهى المسلمون أمر ، ولا عرض لهم عارض ، الا نودي : (الصلاة جامعة) فاجتمع الشعب في المسجد ففي المسجد يكون انتخاب الخليفة ، وفيه تكون البيعة ، وفيه تبحث القوانين ، تستمد من الشرع ثم تعلن فيه على الناس .

وهو (النادي) ، ان قدم أمير بلداً كان أول ما يدخله من البلد المسجد ، على منبره يعلن سياسته ، ويذيع منهاجه ، وان كانت حرب ، عقدت الرايات في المسجد ، وليس في الاسلام حروب هجومية ، لمجرد

الفتح والاستعمار والكسب ، بل فيه الحرب الدفاعية فقط ، حرب الدفاع عن العقيدة ، أن يمنع أحد مسيرها ، وعن أصحابها أن يحول أحد بينهم وبين قيامهم بفرض الدعوة اليها ، انهم مكلفون بحمل المصباح الذي أضيء من غار حراء ، لينوّروا به الدنيا ، ويبددوا به الظلام عن أهلها فاذا انبرى لهم من يحاول اطفاء المصباح ، ومن يريد منع نور الله أن يصل الى عباده ، حاربوه حتى يفيء ويرجع ، فان فاء ورَجع الى الحق كان واحدا منهم ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وان أبى الا عنادا فحارب فغـُلب على أمره ، لم يكرهوه على الاسلام ، ولم يكلفوه شططا ، ولم يحمّلوه الا ضريبة محدودة ، هي تكاليف الدفاع الذي يتولونه هم وحدهم . ضريبة هي أشبه بـ (البدل العسكري) ، يدفعه المغلوبون من أموالهم ، ويدفع المسلمون الغالبون ضريبة الجهاد من أرواحهم .

والمسجد هو (المدرسة) ، وفي المساجد وضعت أسس الثقافة الاسلامية ، وفيها ارتفعت ذراها ، وشيدت صروحها . وكان يدرس في المسجد كل علم ينفع الناس . من علوم القرآن ، وعلوم السنة ، وعلوم الشريعة ، وعلوم اللسان ، وعلوم سنن الله في الاكوان . وكل علم تحتاج اليه الامة الاسلامية يكون تعلمه فرض كفاية في نظر الاسلام ، حتى الكيمياء والفيزياء والرياضيات . ونجد بعد ذلك من تبلغ به الجهالة ، أن يَصِم بالجمود ديناً يجعل تعلم الكيمياء فرضا كفروض العبادات .

والمسجد هو (المحكمة) . وعلى بسط المساجد وأمام أعمدتها وأساطينها ، أصدرت أعدل الاحكام ، وأجرؤها ، وفيها سطرت أروع صفحات القضاء البشري ، ولطالما أقام القضاة فيها الجَمّال والحَمّال

مع أمير المؤمنين(١) ، والاجير والفقير مع الامير الكبير(٢) ، ثم حكموا له عليه ، لا يبالون مع الحق صغيرا ولا كبيرا .

ولقد تشرفت فزرت آلافا من المساجد ، في الداني والقاصي من بلاد الاسلام ، عامرها وداثرها ، فرأيت المسجد الحرام ، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمسجد الاقصى ، والازهر المعمور ، ومسجد أبي حنيفة والجيلاني في بغداد ، وابن طولون والمتوكل ، في القاهرة وسرَّ من رأى ، وآثار مسجدي الكوفة والبصرة ، والمسجدين العظيمين : المسجد الجامع في دهلي ، وآثار مسجد قوة الاسلام في دهلي القديمة ، ومساجد الملايا وجاوه ، فما رأيت فيها كلها بعد المساجد الثلاثة التي ميزها الله ، وجعل الصلاة فيها أفضل بدرجات ، مسجدا هو أقدم قدما ، وأفخم مظهرا ، وأجمل عمارة ، وأحلى في العين منظرا ، من الجامع الاموي في دمشق .

كان مدرسةَ دمشق ، فيه الحلقات يدرس فيها كل علم ، وكان النادي يجتمع فيه الناس كلما دهم البلد خطب ، وكان الاموي في عهد نشأتنا الاولى لبَّ دمشق ، فكانت الدار القريبة هي القريبة من الاموي ، والبعيدة هي البعيدة عن الاموي ، وكانت الارض الغالية هي التي جاورت الاموي ، وكان الاموي ملعبنا ونحن أطفال ، ثم كان مدرستنا الثانية ونحن طلاب ، ندخله اذا انصرفنا من المدرسة فنصلي فيه ، ونقف على حلقاته ، وما كان يخلو وقت فيه من حلقتين أو أكثر وكنا نتبوَّأ مقاعدنا

---

(١) منها دعوى الجمال على أمير المؤمنين المنصور امام قاضي مكة .

(٢) ومنها دعوى المرأة على عيسى بن موسى أكبر أمراء البيت العباسي ووالي العراق أمام القاضي شريك .

في بعضها ، نأخذ الفقه والحديث واللغة والنحو ، وكنا نؤمه في عشايا الصيف مع آبائنا ، نتخذ من صحنه متنزّها وأنسا ، وكنا نؤمه في ليالي الشتاء نتخذ من حرمه ملجأ وأمنا ، وكان الاموي مثابة الجهاد الوطني على عهد الانتداب ، فيه تلقى الخطب ، وفيه تعد المظاهرات ، ومنه تسري روح النضال في الناس ، فكان للدين والدنيا ، وللعبادة والعلم ، ولكل ما فيه رضا الله ونفع الناس ، وكذلك يكون المسجد في الاسلام .

وأكثر ما كثر عليه ترددادي ، واتصل به حبلي ، لما كنت في المدرسة الجقمقية ، ثم لما صرت من بعد في مكتب عنبر ، واولعت من أيام الجقمقية (سنة ١٩١٩م) بأن أنقل كل خبر أجده عن الاموي ، واستمر ذلك أكثر من أربعـين سنة ، من تلك الايام الى الآن ، فاجتمـع لي من الاوراق والجذاذات والمذكرات ما يملأ درجا كبيرا وكنت كلما عزمت على تصفيته، واخراجه في كتاب ، تعاظمني الامر فتهيَّبته ، وقدجمعت كل ما وجدته عنه في ابن عساكر والدارس ومحاسن الشام ، ومسالك الابصار ، والبداية والنهاية ، والروضتين وذيله ،وشذرات الذهب ومعجم البلدان ، والنجوم الزاهرة ، وتاريخ ابن القلانسي ، والسلوك للمقريزي ، وكتب ابن طولون، وما كتبه القاسمي وبدران . ورأيت بعض الرسائل المخطوطة ، وكتبا اخرى لا أريد الآن احصاءها .

وكنت كلما تقادم العهد ، ازدادت هذه الاوراق كثرة ، وازددت لها تهيبا ، حتى اذا صح مني العزم قليلا ، استخرجت سلسلة الاحاديث التي كنت حدثت بها من اذاعة دمشق عن الاموي من سنين ثم تركتها ، فلما طلبت مني المديرية العامة للاوقاف ، أن أكتب شيئا عن الاموي ، يكون

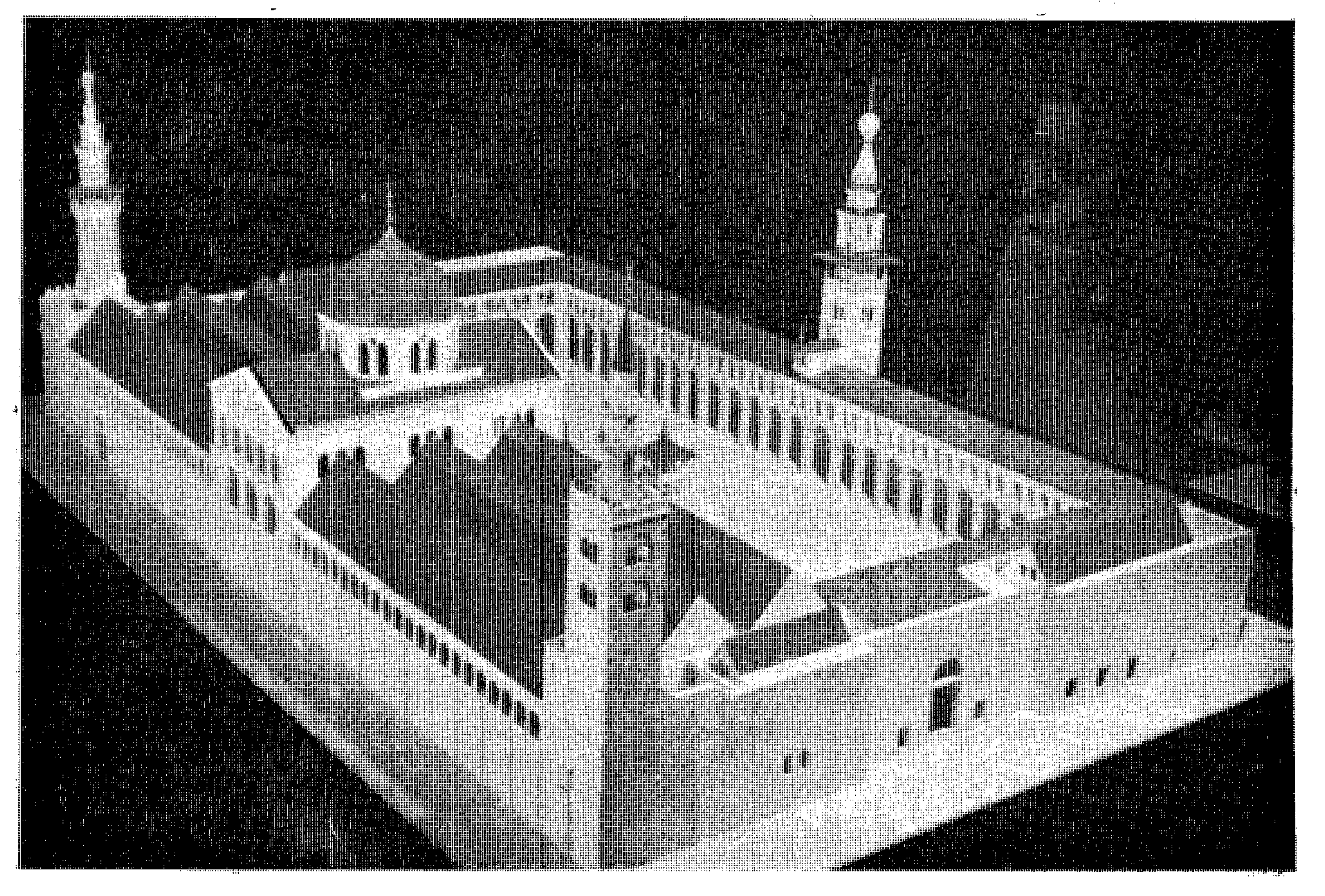
كالدليل للسائح ، استخرجت منها هذه الخلاصة التي أقدمها اليوم ، ولم أعزُ كل خبر فيه اعتمادا على أني سأخرج ان شاء الله الكتاب الكبير عن الاموي ، وكل خبر فيه معزوٌ الى مصدره ، ولأني جربت في كتابي عن أبي بكر وعمر أن أذكر كل مصدر ، وأعين الطبعة من الكتاب والجزء والصفحة ، فأخذ ناسٌ من (أكبر) كتابنا ومؤلفينا ما فيهما ولم يشيرا اليهما ، وادعيا أنهما أخذا من الاصول التي نقلت منها •

وأنا أسأل الله التوفيق ، وأن يجعلنا من المخلصين •

دمشق : ٤ رمضان ١٣٧٩
١ آذار ١٩٦٠

علي الطنطاوي
مستشار محكمة النقض في الجمهورية العربية المتحدة

* * *



هيكلٌ مصغر للاموي

حيـــاة الأموي

لكل موجود (ان حققت) حياة : الجبال والانهار ، والمدن والعمارات، كلها حية تولد وتموت ، وتشب وتهرم ، وتصح وتمرض .

هذا الاموي الذي جئت اعرض عليكم خطوطا من صورته ، وملامح من تاريخه ، له حياة طويلة ، ولحياته تاريخ طويل .

تاريخ لا يدري الا ببعضه التاريخ ، لأن الاموي ولد قبل ان يكتب التاريـخ .

لا نعرف ولا يعرف أحد من الذي وضع الحجر الاول فيه ، ولا متى شيد ، فكأنه قام ليصل الازل بالابد .

صارع النار والدمار ، وثبت على الادهار والاعصار ، تكسرت على جدرانه موجات القرون كما تتكسر الامواج على صخرة الشاطىء ، ثم ترتد عنه ميتة وهو حي قائم .

ذهبت أمية بمالها وسلطانها ، ولبث وحده يخلد في الدنيا اسم أمية، فكان ابقى من كل ما نالت أمية من مال ومن سلطان .

كان معبـدا من أكثر من ثلاثـة آلاف سنة ، تداولته أيدي اليونان والرومان وأقوام كانوا قبلهم ، ثم صار للمسيح ، ثم انتهى لمحمد .

كنيسة صـارت الى مسجـد   هـدية السيد للسيد (1)

---

(1) البيت لشوقي .

صلى الله على سيدنا المسيح ، وعلى سيدنا محمد خاتم الانبياء الذي نسخت شريعته الشرائع وعلى كل نبي أرسله الله بالهدى والتوحيد والدين القيم ، لا نفرق بين أحد من رسله ، نؤمن بكل نبي بعثه الله على ما بعث عليه ، وكل كتاب انزله الله على ما نزل عليه ، ونقول كل من عند ربنا ونحن له مسلمون .

* * *

ولد المسجد ليلة الفتح ، حين شرف الله الشام وأراد لها الخير ، فاستظلت براية القرآن ، واتبعت داعي الله وسلكت الطريق الموصل (ان شاء الله) الى الجنة ، ثم شب واكتهل ، ونما واكتمل ، على عهد الوليد ، يوم كانت دمشق تمرح في جنة من غرس محمد ، وتنعم هانئة بالامن والرخاء في فيء الصرح الذي شاده محمد ، حين كانت الليالي أعراس ، والايام أفراح ، والدنيا ترقص ابتهاجا وتميس من السرور .

هنالك كان الاموي يتبوأ في دمشق سدة ملك . قد لبس الفسيفساء ، وتحلى بالذهب ، وتسربل بستر الوشي والديباج ، وتاه على كل بناء في الارض .

ثم أراه الزمان من حلوه ومره ، ومن نعيمه وبؤسه ما يُري كلّ (حي) في الوجود .

ولست أستطيع أن أعرض عليكم تاريخ الاموي ، يوما بيوم ، فلقد كانت تتعاوره الايدي دائما : أيدي المصائب والبغاة ، بالخراب والدمار ، وأيدي المصلحين بالعمارة والاصلاح ، حتى غدا وفي كل شبر منه تاريخ ، وصار كفسيفسائه ، كل قطعة منه من طبيعة ومن لون . ولكل يوم من حياته الطويلة قصة !

ومن كانت له دار يسكنها هو ، وسكنها ابوه من قبله خمسين سنة، يتعهدها فيها بالاصلاح وبالتجديد ، لم يستطع أن يحدد تاريخ كل باب فيها وكل جدار ، فكيف بالاموي وهو من ألف وثلاثمئة سنة عرضة للاصلاح والتجديد .

بقي الاموي على صفته الاولى (التي ستقرؤونها بعد صفحات) أو على قريب منها نحوا من أربعمئة سنة ، أي الى سنة ٤٦١ حين نشب فيه الحريق العظيم ، فنسخ آيات حسنة ، وطمس وجه جماله ، وصيره تلالا من التراب ، وبقي على ذلك أربع عشرة سنة الى سنة ٤٧٥ حين جدد بأمر ملكشاه السلجوقي .

ثم تتالت عليه الزلازل والحرائق على ما سيأتي تفصيله ، ولم يكن عمل البشر في صحن المسجد أقل من عمل الطبيعة[1] فلقد انتابه الاهمال مرة حتى صار كأنه خان أو فندق ، وامتلأ صحنه باللاجئين والمقيمين وصار الرجل يجد لنفسه موضعا فيه يضع فيه حاجاته وصندوقه ، ويقيم على نفسه مقصورة أو كوخا ، ويستقر فيه ، وبلغ ما فيه من هذه المقاصير أكثر من ثلاثمئة ، واتخذ فيه الامراء حواصل ومستودعات ، وبقي ذلك مدة لا يعرف مقدارها حتى جاء الملك الظاهر ، فكان من بداية اصلاحاته أن طرد هؤلاء الناس ، ونظفه وغسل رخامه ، وفرشه وأعاده مسجدا للعبادة والعلم .

---

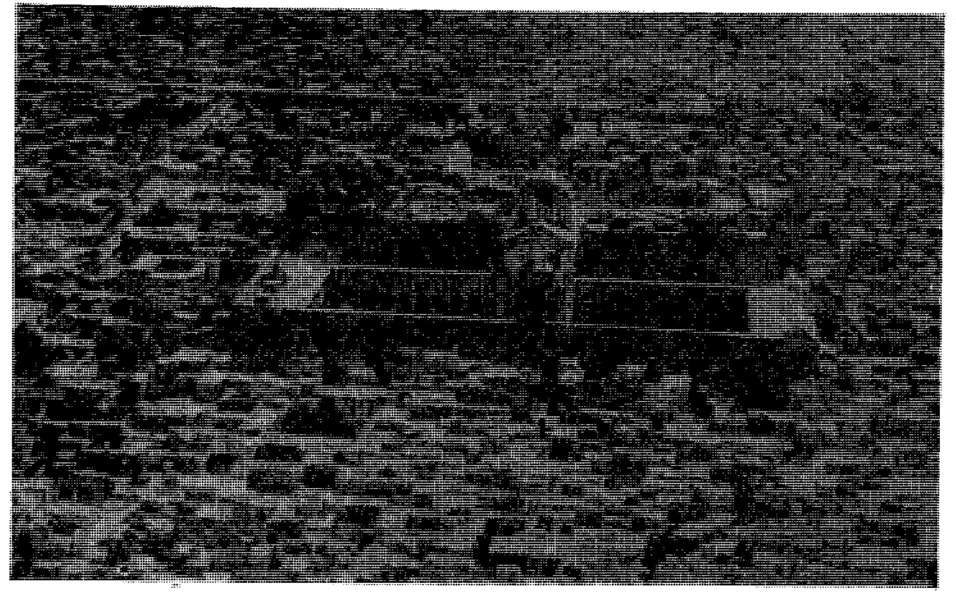
(١) الطبيعة (فعيلة) بمعنى مفعولة — والذي طبعها واجراها على سنتها هو الله خالق كل شيء .

وعبث به التتر والمغول مرتين ، مرة في أواخر القرن السابع الهجري، اذ عطلوه واتخذوه معسكرا لهم . ونصبوا فيه المنجنيقات لرمي القلعة ، وارتكبوا فيه أنواع الاثم والفجور .

ومرة على عهد تيمورلنك الذي أساء الى دمشق اساءة لم يأت مثلها أحد .

ثم كان الحريق الاخير سنة ١٣١١ الذي ذهب بالمسجد كله (أي الحرم) وجدده أهل الشام وفيما يلي من الفصول ، بعض التفصيل لهذا الاجمال .

* * *



منظر الاموي من الطيارة



مئذنة العروس (وهي المئـــذنة الرئيسية) مع الرواق الشمالي
ومنظر المدينة من وراء المسجد

جولة في الأموي

تعالوا أولا ، نلم بالمسجد كله بنظرة واحدة ، أكون أنا فيهادليلكم ، أصفه لكم باجمال وايجاز ، ثم أعود في الفصول التالية،فأفصل ما أجملته، واسهب فيما أوجزته .

السور والدهاليز

نحن الآن في باب البريد ، أترون هذه القنطرة وهذه الاعمدةالكبار؟ هذه بقايا أعمدة السور الخارجي للمعبد ، والكتابات التي تبدو عليهـا كتابات محدثة من عهد المماليك .

أما قناطر السور الداخلي ، فترون بقايا ركائزها لاصقات بالجدران على طرفي باب المسجد .

وكان لكل باب من الابواب الاربعة دهليز ، وأعظمهـا دهليز الباب الشرقي ، ثم الباب الغربي (وهو هذا) ثم الباب الشمالي ، ولا تزال آثار ذلك كله واضحة ، ولا تزال بقايا أعمدة الدهليز الشرقي وأعمدته الكبار ماثلة قد غطتها الدكاكين .

وقد بقيت هذه الدهاليز الى القرن السادس وترون وصفها فيما كتبه ابن جبير وأثبتناه في آخر هذا البحث .

مداخل الأموي

وهذه الدكاكين التي تشوه منظر الجامع في السوق الضيق من هنا،وفي

القباقبية من هناك ، كان الامراء يمنعون أمثالها حرمة للاموي ، وقـد صدر الامر سنة ٦٤٧هـ بهدمها كلها، وكانت عنايتهم بمداخل الاموي وما حوله كعنايتهم به نفسه ، ففي سنة ٦١٠ أمر الملك العادل بوضع سلاسل في أيام الجمع على الطريق المؤدية الى الجامع كيلا تصل الدواب اليه ، كالسلسلة الممدودة الآن على مدخل سوق الحميدية ، في موضع باب النصر الذي كان أحد أبواب دمشق[1] .

وفي سنة ٦٦٣ بلط الطريق من باب الجامع الى القناة التي كانت عند درجات المسكية التي ازيلت من نحو اربعين سنة ونحن نعرفها ، وعمل الى جانبها القبلي بركة وشاذروان (الشاذروان معناه عندهم لسان من البناء يتدفق منه الماء أو نحو ذلك ولا يزال يستعمل بهذا المعنى فـي الحجاز والكلمة فارسية الاصل) وغطيت الساقية التي كانت هناك ، وجعل للبركة أنابيب يجري فيها الماء الى الجهة المقابلة ، وسحب ماؤها من نهر قنوات لينتفع بها الناس عند انقطاع ماء نهر باناس (بانياس) .

ولقد خبرني ناظر الجامع الشيـخ حمدي الحلبي أن تلك الساقيـة لا تزال موجودة ولكنها مغطاة وهي تمر تحت بيت الخطابة .

النوفرة :

وكان من عنايتهم بتجميل مداخل الاموي ، أن أقيمت الفوارة (النوفرة) أسفل درج المسجد عند باب جيرون . وقد أنشئت سنة ٤١٦ وجر اليها الماء من نهر قنوات ظاهر قصر حجاج (نسبة للحجاج بن الوليد بن عبد الملك)

---

(١) (رآه ابن جبير وذكـره في رحلته واندثر من عهـد بعيـد) ومن المصادفات غير المقصودة أن سمي الشارع المقابل له بشارع النصر وهو أول شارع حديث في دمشق فتحه جمال باشا سنة ١٩١٦ .

فوصل اليها الماء ليلة الجمعة ٧ ربيع الأول ٤١٧ وكان القائم بانشائها القاضي حمزة الحسيني ناظر الجامع .

وسقطت سنة ٤٥٧ من جمال احتكت بها فأعيد انشاؤها . ثم سقطت عمدُها وما عليها في حريق اللبادين (النوفرة) وباب الساعات في سنة ٥٦١ وكان حريقا عظيما وأعيد بناؤها .

وفي سنة ٥١٤ أقيم عليها شاذروان .

وفي سنة ٦٠٧ تخربت فاصلحت وجدد الشاذروان والبركة وبنى أمامها المسجد وجعل له امام راتب .

وفي سنة ٨١٤ بيض شاذروان الفوارة وأعيد جري الماء فيها بعدما انقطع أمدا .

أبواب الأموي

وللمسجد ستة ابواب .

هذا الباب الذي تقف عليه الآن وهو باب البريد وهو كما ترون ثلاثة ابواب ، باب كبير في الوسط ، وبابان على جنبيه ، وكان ثاني البابين الرئيسيين للمعبد .

أما الباب الرئيسي الاول فهو باب جيرون المقابل له وعرف بعد القرن الخامس بباب الساعات وباب اللبادين وهو مثله في ثلاثة ابواب ويسمى الآن باب النوفرة . وقوسه لا يزال كما كان من القديم . وقد بقي باب المعبد الاصلي وهو من خشب الصنوبر البالغ المتانة ، وكان مصفحا بالنحاس ، له مسامير كبار بارزة الى حريق سنة ٧٥٣ فتشوه وأثر فيه الحريق فنقل الى خزانة الحاصل (أي الى المستودع)ثم فقد . وقدر المؤرخون عمر هذا الباب حين الحريق بأكثر من الف سنة .

ثم الباب المسدود الآن وهو وراء المحراب وله باب كبير في

الوسط وصغيران على الجانبين وكان يدخل معاوية والخلفاء من الاوسط فلما بنى الوليد المسجد وأزال الكنيسة صار الخلفاء يدخلون من الباب الاصغر على يسار المحراب .

والباب القبلي هو الذي كان يعرف بباب الزيادة وكان يسمى باب الساعات ثم انتقل هـذا الاسم الى باب جيرون لأن الساعات نقلت اليه ، ويسمى الآن باب القوافين .

وباب الناطفانيين وهو باب الفراديس ويسمى الآن باب العمارة .

والباب المحدث الى مدرسة الكلاسة .

وفي سنة ٦٠٧ جدد باب البريد (أي الابواب الثلاثة) وركبت عليها صفائح النحاس الاصفر . وجدده الملك الظاهر كذلك سنة ٦٧٣ .

وفي سنة ٧١٩ حليت الابواب وحسنت . كان قد سد البابان الصغيران من الباب الشرقي (باب جيرون) بعد حادثة تيمورلنك وبنيت دكاكين في رحبة الجامع فهدمت أول سنة ٨٢٠ . وركب البابان الصغيران الغربيان سنة ٨١٩ . والبابان الشرقيان سنة ٨٢٠ . وقد جددت صفائح النحاس على الابواب حديثاً[1] .

خلع النعال

ولنخلع الآن النعال ولندخل .

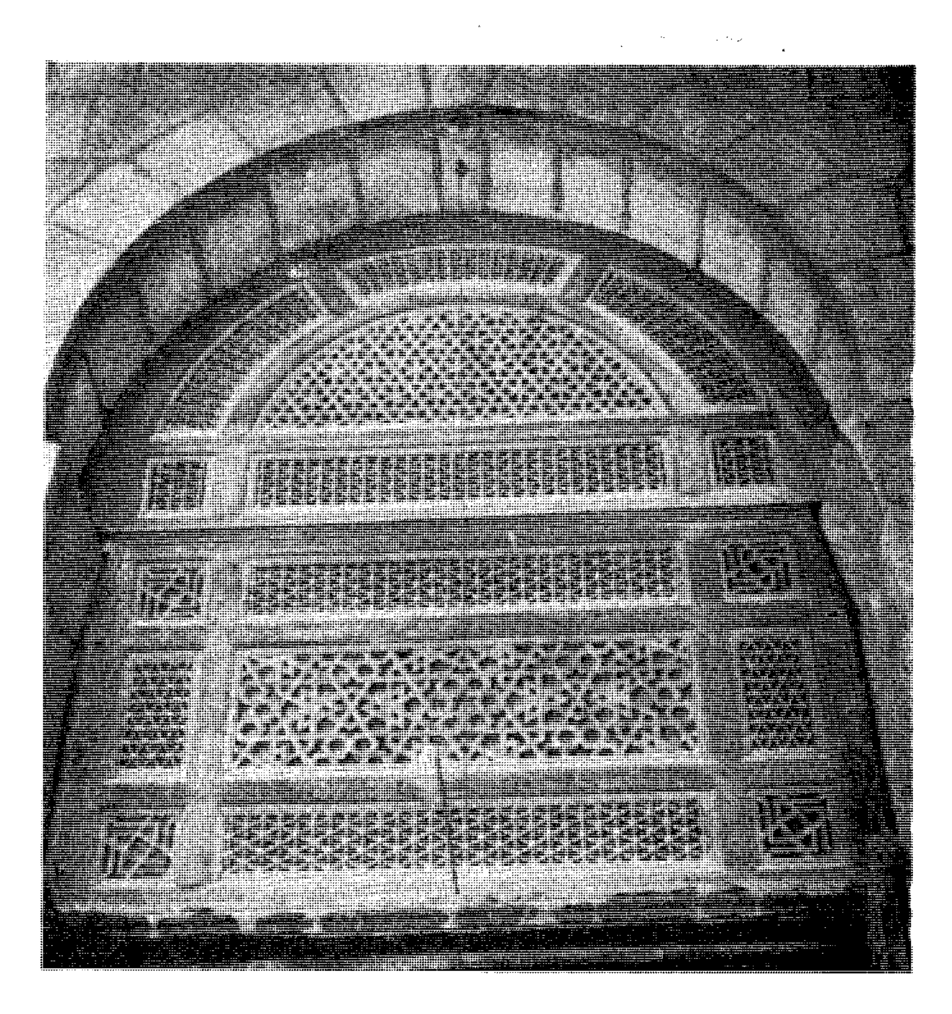
وكان الدخول الى المساجد في أول الاسلام بالنعال ، لان الارض في الحجاز جافة والمساجد غير مفروشة وكذلك كان يدخل الى صحن الاموي ، كما يظهر ، وفي ربيع الآخر سنة ٨٢٧ فوض النظر على الجامع الى امامه الحنفي ، وهو رجل مصري يقال له تقي الدين العمادي ، فألزم الناس ألا

(١) انظر الفصل الملحق بهذا الكتاب .

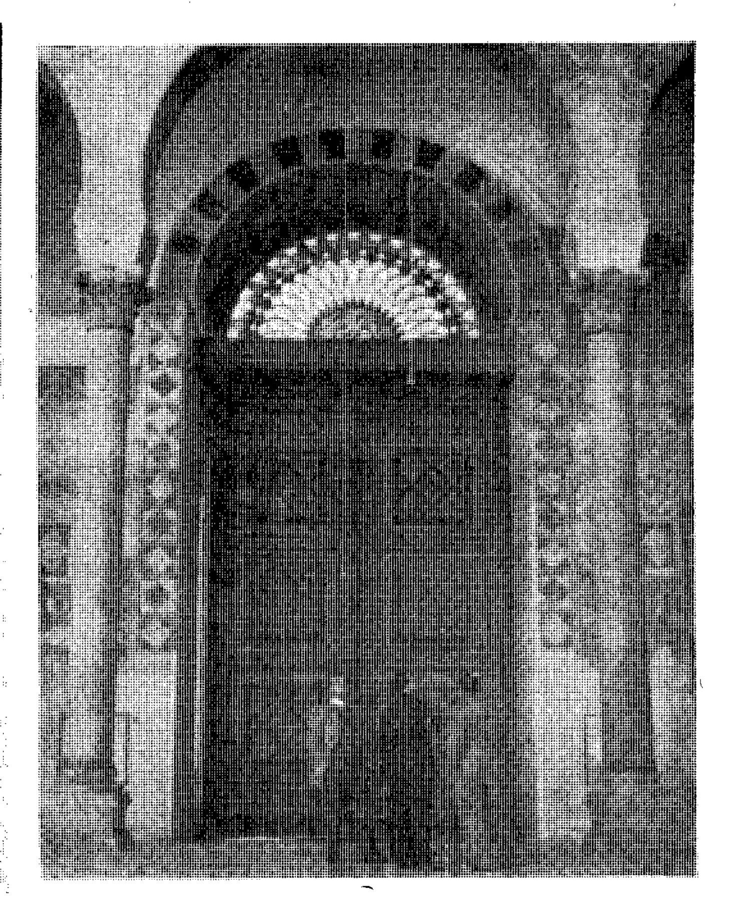
يمشوا في الصحن الا حفاة ، فشق ذلك عليهم ، ولكنه أصر وعمل على الابواب درابزينات وحواجز لخلع النعال وبقي ذلك الى شوال من تلك السنة ، ثم عزل العمادي ، وعاد الناس الى ماكانوا عليه .

وفي سنة ٧٢٢ لما جدد المسجد بعد حادثة التتار ، منع ناظر الجامع ابن المرحل (وهو محمد بن عمر العثماني) الدخول بالنعال ، بأمر نائب الشام تنكز . وفي شعبان سنة ٨١٦ سمح بالمشي فيه بالنعال . ثم منع ذلك في وقت من الاوقات ، واستمر المنع الى الآن .

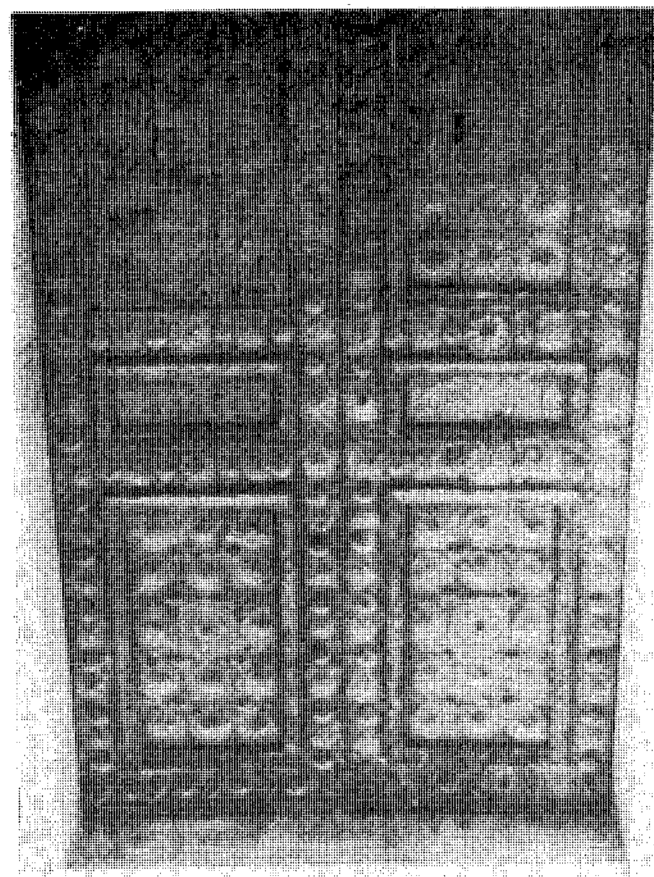
* * *



تيجان ابواب الحرم



باب البريد من الداخل



صفائح الابواب

في صحن الأموي

لقد دخلنا من باب البريد ، نحن بين بابين على اليمين وعلى اليسار ، لندخل من اليسار ، هـذه القاعة الكبيرة التي اتخذتها دائرة الاوقاف للاستقبال هي مشهد عثمان .

والمشاهد مساجد صغيرة ملحقة بالجامع كان لكل منها امام خاص .

فاذا خرجنا منه ، وجدنا بعده بابا لغرفة واسعة ، وكانت تسمى قديما بيت الزيت الغربي ، وكانت (كما هي اليوم) مستودعا للمسجد .

فاذا صرنا في زاوية الرواق ، وجدنا آثار غرفة ، كانت هناك قديما هي زاوية الغزالي لأنه نزل بها ، وهي في الاصل أساس الصومعة الغربية التي أزيلت هي والشرقية المقابلة لها قبل الفتح الاسلامي .

وهذا الباب الصغير المفتوح في شمال المسجد ، هو باب مدرسة الكلاسة التي أنشأها نور الدين سنة ٥٥٥ ، ثم احترقت هي ومنارة العروس بعد انشائها بأمد يسير ، فجددها صلاح الدين هي والمنارة ، وهذه هي المنارة الرئيسية اليوم ، وفيها أذان الجماعة الذي أحدث في عصور متأخرة . ذلك لأنها تطل على صحن المسجد ، وفيها الآلة الفلكية التي تسمى البسيط ، والبسيط الذي كان فيها من صنع ابن الشاطر رئيس المؤذنين بالجامع في القرن الثامن ثم انكسر بيد جدنا الشيخ محمد الطنطاوي المتوفى سنة ١٣٠٤ فصنع البسيط الموضوع الآن ، ويقول

الشيخ الخاني في كتابه (الحدائق) أنه جاء أكمل من الاول اذ زاد فيه قوس الباقي للفجر(١) •

وبعد المنارة باب الفراديس ، ثم الخانقاه (وأصلها خانهقاه أي دار العبادة) السميساطية بناها السميساطي المتوفى سنة ٤٥٣ • وكانت في الاصل دار عمر بن عبد العزيز • ثم نوافذ التربة الكاملية التي دفن فيها الملك الكامل الايوبي ثم مشهد زين العابدين المعروف اليوم بمشهد الحسين ، في شرقي الصحن ، وفيه الآن القبر المشهور أن فيه رأس الحسين ، وفي المسجد الملاصق للازهر في مصر قبر آخر لرأس الحسين، ولابن تيمية رسالة في تحقيق مدفن الرأس مطبوعة معروفة •

ثم باب جيرون •

القباب

وفي الصحن ثلاث قباب •

اولاها : القبة الغربية (قبة المال) أنشأها الفضل بن صالح بن علي العباسي (ابن عم المنصور) لما كان أمير دمشق سنة ١٧١ أيام المهدي ، ويظهر أنها كانت مغلقة ، والناس يتوهمون أن فيها مالا ، ولم أجد خبرا لفتحها الا ماكان سنة ٩٢٢هـ اذ فتحها (سيباي) فلم يجد فيها الا اوراقا

---

(١) وقال في (منادمة الاطلال) .

وقد بقي البسيط الذي صنعه ابن الشاطر الى سنة ١٢٩٠هـ وكان شيخنا الشيخ محمد الشهير بالطنطاوي اماما في فن الهيئة والميقات في دمشق ، فرآه قد اختل لمرور السنين فجاء يحرره فانكسر فصنع غيره ولكنه رسمه على الافق الحقيقي ، وقد حصل له معاكسات من اهل دمشق وهجاه بعض ذوي الخلاعة والعقل المنحرف ثم انه رسم آخر على الافق المرئي ووضعه في جامع الدقاق في الميدان .

ومصاحف بالخط الكوفي ، وقد فتحت في سنة ١٣٠٦ فوجدت فيها مصاحف ومخطوطات نقلت الى اسطنبول .

ثانيتهما : القبة الشرقية ، بنيت كذلك ايام المهدي سنة ١٦٠ وتعرف بقبة زين العابدين ، وكانت تسمى قبة يزيد ، وتسمى الآن قبة الساعات اذ كانت فيها ساعات المسجد .

والثالثة : القبة التي على بركة الماء وقد كانت من الرخام وأقيمت سنة ٣٦٩ (١) وكان لها انابيب من نحاس قيل في وصفها :

فوارة كلما فارت فرت كبدي ... وماؤها فاض بالانفاس فاندفعا
كأنها الكعبة العظمى فكل فتى ... من حيث قابل أنبوبا لها ركعا

البلاط

كانت ارض الصحن كلها مغطاة بفصوص الفسيفساء ، لم يكن فيه بلاط ، وبقي ذلك الى حريق سنة ٤٦١ فذهب كله وصارت أرضه طينا في الشتاء وغبارا في الصيف مهجورة ، وبقيت كذلك الى شعبان سنة ٦٠٢ فهدمت القنطرة الرومانية عند الباب الشرقي ، ونشرت حجارتها وبدىء بتبليط صحن الجامع الاموي على عهد الوزير صفي الدين وزير العادل وكمل تبليطه سنة ٦٠٤ ، وذلك أنهم لما أرادوا فتح نوافذ للتربة الكاملية المحدثة على الجامع ، لم يمكنوهم من ذلك الا بشرط تبليطه .

وفي سنة ٦١١ جدد بلاط أرض الجامع من الداخل بعدما صارت حفرا و (جورا) وتم سنة ٦١٤ ووضع متولي دمشق مبارز الدين ابراهيم (المتوفي سنة ٦٢٣) آخر بلاطة بيده ، وكانت عند باب الزيادة ، وكان ذلك على عهد الملك العادل .

وكان الملك الظاهر قد أصلح في الجامع اصلاحات كثيرة منها أنه فرش

---

(١) وفي منادمة الاطلال ٣٩٦

باب البريد بالبلاط نحو سنة ٦٧٠ هـ أما البلاط الحالي فقد رصف نحو سنة ١٣٠٠ على عهد الناظر الشيخ احمد الحلبي وقد تكسر من القاء الاعمدة عليه عند عمارة المسجد بعد الحريق الاخير •

ومستوى أرض الجامع اليوم أعلى من أرضه على عهدالوليد • وتبين من حفريات مهندس الاوقاف(١) من أمد قريب ، حول قبة المال ، أن قواعد الاعمدة على عمق ثلاثة أمتار(٢) والقبة بنيت أيام المهدي العباسي ، وأخبرني جار الجامع الشيخ عبد القادر العاني ، أنه رأى عند الحفر لتجديد الحائط قطعة من ارض الجامع الاصلية مغطاة بفصوص على شكل الفسيفساء على عمق مترين ونصف ، ولكن هذه الفصوص أكبر من فصوص فسيفساء الجدران ، وأقدم قطعة من البلاط اليوم هي التي أمام العمود الرابع من الرواق الغربي ، وفيها حجران كبيران يظهر أنهما من القنطرة التي هدمت لرصف الجامع بالبلاط سنة ٦٠٢ •

* * *

(١) ايكوشار

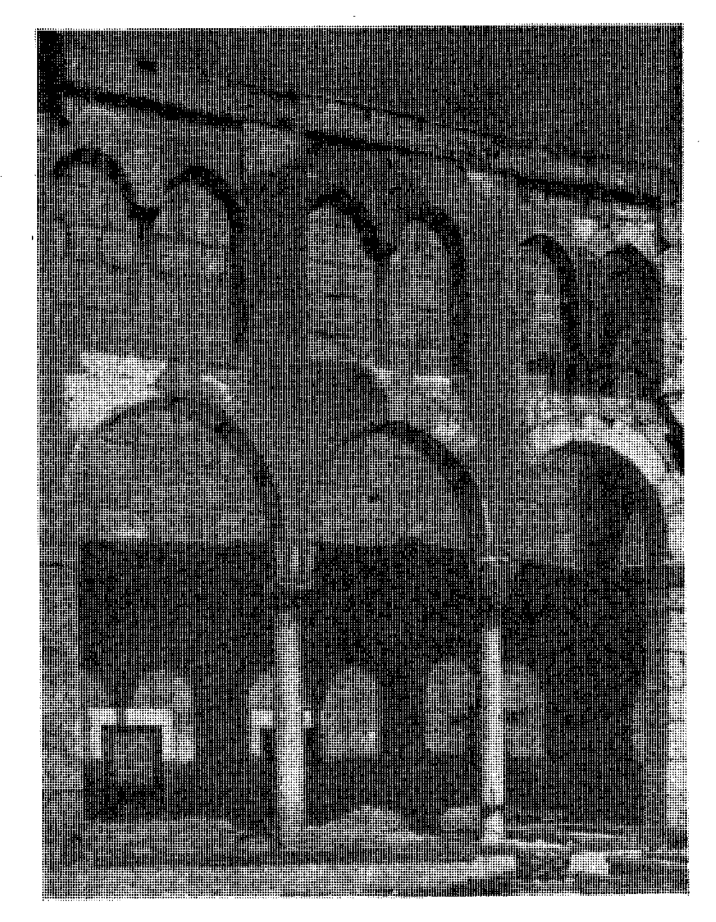
(٢) اما ارض الجامع فالغالب انها كانت تحت الارض الحالية بنحو نصف متر فقط .



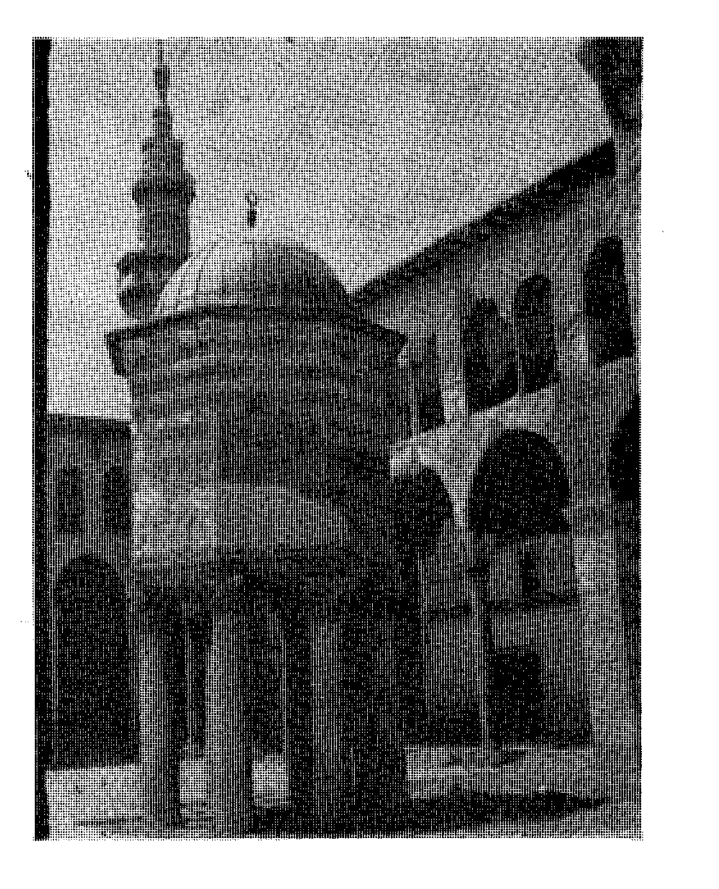
تيجان أعمدة الاموي



من مناطق الفسيفساء



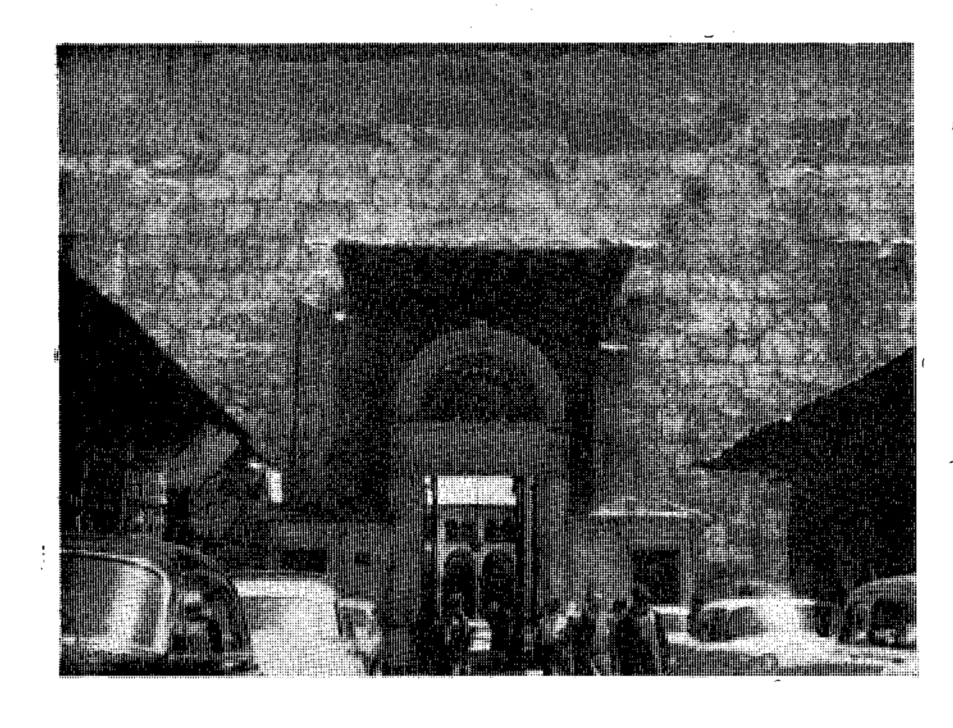
أعمدة رواق الصحن الشمالي عند التجديد



قبة المال (القبة الغربية في الصحن)



القبة الشرقية (قبة الساعات)



الباب الغربي (باب البريد)



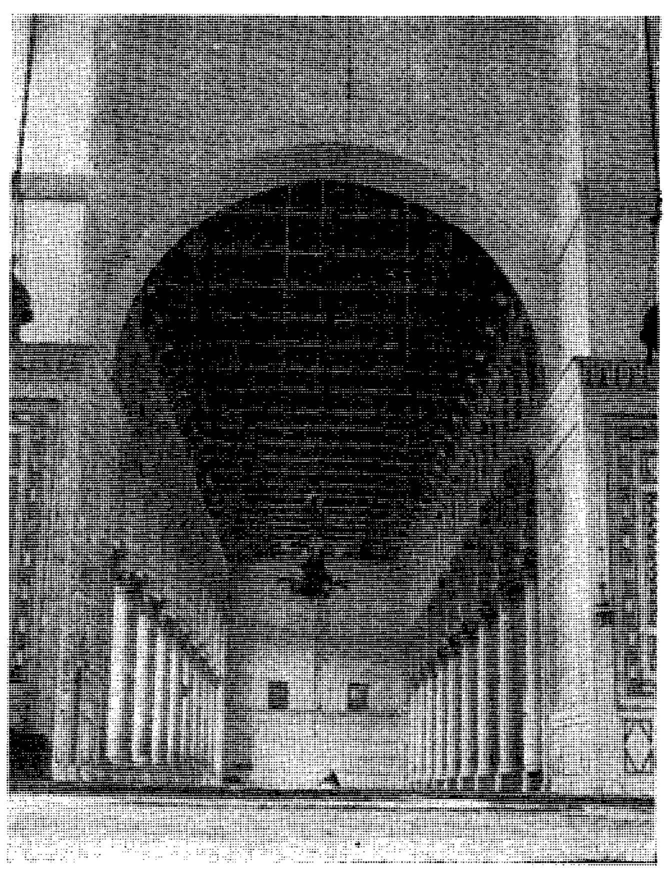
فلندخل الآن الى الحرم ، ان هذه الابواب المتصلة المفضيةالى الحرم، لم يكن لها في الاصل مصاريع ، وانما كانت عليها الستر الى حريق سنة ٤٦١ ، فاذا دخلنا ، وجدنا الى اليسار ، مشهد ابي بكر ، المعروف الآن بمشهد السفرجلاني ، ثم مدخل المنارة الشرقية ، ثم المحراب المالكي ، وهو المحراب الاصلي للمسجد قبل أن يبنيه الوليد ، وكان يسمى محراب الصحابة(١) وأنشىء المحراب الكبير ، عند عمارة الوليد وجعل للخطيب .

في سنة ٦١٧ نصب محراب الحنابلة بالرواق الثالث الغربي (قرب البئر) أي وراء الصف الثالث من الاعمدة ، وقد عارض في نصبه بعض الناس ، ولكن ركن الدين المعظمي ، قام بنصرة الحنابلة ، وصلى فيه الموفق ابن قدامة المقدسي ، ثم رفع في حدود سنة ٧٣٠ ، وعوضوا عنه بالمحراب الغربي عند باب الزيادة ، وهو باق الى اليوم .

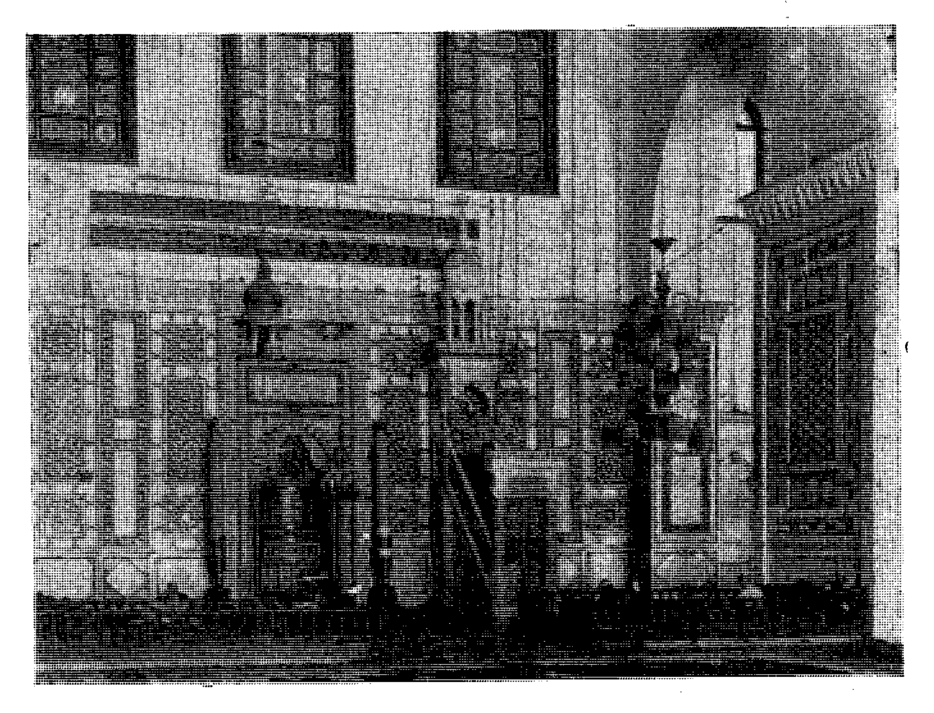
وعمل محراب الشافعي الآن سنة ٧٢٨ بأمر تنكز ، وخص بالحنفية، وصارت المحاريب أربعة : محراب الخطيب ، ومحراب الحنفي (وهو الشافعي الآن) ، والمالكي والحنبلي .

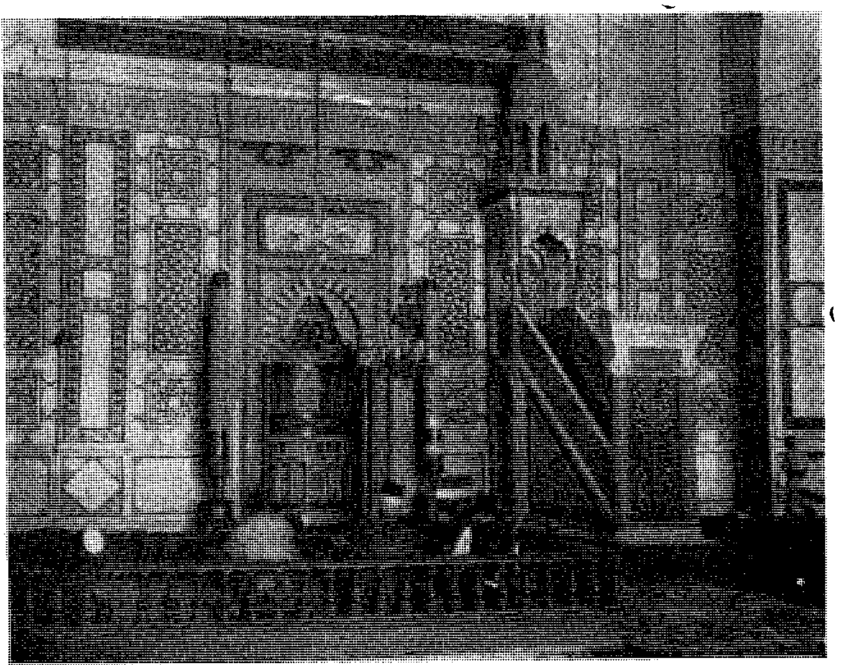
وكانوا قبل سنة ٦٩٤ يصلون في وقت واحد ، ثم رسم للحنابلة أن يصلوا قبل الامام الكبير ، وفي سنة ٨١٩ انتقل الامام الاول من محراب المالكية ، الى محراب الحنفية (وهو الشافعي الآن) . ثم استقرت الحال

(١) والمحاريب لم تكن على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وهي مما احدث .



النصف الغربي من البلاطة الوسطى
وذلك سدس الحرم





المنبر والمحراب

على ان أول من يصلي امام الكلاسة ، ثم امام مشهد الحسين ، ثم الشافعي ، ثم المالكي ، ثم الحنبلي ، ثم امام مشهد ابي بكر ، ثم امام مشهد عروة ، ثم امام مشهد عثمان . ثم اقتصر الامر على أئمة المسجد الاربعة والعمل على ذلك الى الآن بهذا الترتيب ، أي الشافعي فالحنفي فالمالكي فالحنبلي (١) .

القبر

أما القبر فقد نقل ابن عساكر أنهم راوا عند عمارة المسجد مغارة ، فخبروا بها الوليد ، فنزل اليها والشموع بين يديه فوجد كنيسة صغيرة ، ثلاثة اذرع في ثلاثة أذرع ، فيها صندوق فيه سفط (قفّة) فيه رأس ، سليم الجلدة والشعر ، مكتوب عليه أنه رأس يحيى بن زكريا ، فأمر بتركه على حاله ، وجعل للعمود القائم على المغارة علامة تميزه ، وبقي كذلك فترة ثم وضع فوقه تابوت عليه اسم يحيى ، رآه ووصفه (كما سيأتي) ابن جبير في أواخر القرن السادس الهجري ، وبقي ذلك الى تاريخ رحلة ابن بطوطة ، ثم اقيمت هذه القبة في وقت لم أقف على تحديده الى الآن .

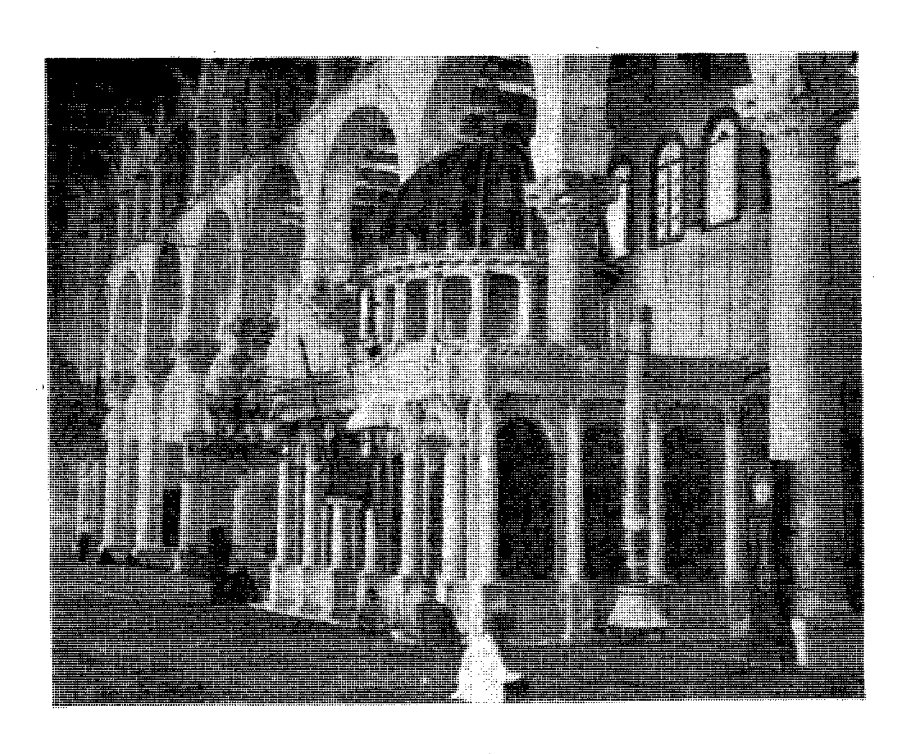
ولم يتخذ الوليد عليه قبرا ، لأنه لم يثبت عنده أن الرأس ليحيى ، ولان اقامة القبور في المساجد او بناء المساجد عليها ممنوع في الاسلام ، والرسول صلى الله عليه وسلم حذر منه ولعن فاعله ، وكان ذلك من آخر ما نطق به صلى الله عليه وسلم قبل وفاته (٢) .

ولا يحتج لجواز اتخاذ القبور مساجد بقبره صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) الصحيح من السنة انه لا يجوز تكرار الجماعة في مسجد له امام راتب ، وعلى ذلك مذهب الحنفية (الحاشية) ١:٢٦٥ ـ ١:٣٧١

(٢) وفي كتب الحنفية المنع من ذلك (الحاشية ١:٦٠١ والهندية ٥:١٦٦)



القبـــر

فان قبره لم يكن في المسجد ، بل كان في داره ، فلما دخلت الدار في المسجد عند التوسعة (١) ، صار فيه ، وقد نص الحنفية أن من آداب زيارة قبره صلى الله عليه وسلم ألا يستقبل الزائر القبر بل يقف بحذاء رأسه الشريف ويصلي عليه ويدعو له ، وهو مستقبل القبلة (٢) • مع أن الثابت من تاريخ سيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام ، وهو الذي يسميه النصارى (يوحنا المعمدان) أنه كان على عهد المسيح عليه السلام، وأن الامبراطور الروماني ، أمر بقتله وسلم رأسه الى (تلك) الراقصة الفاجرة ، فعبثت به ولم يعلم مصيره ، فهو قد قتل في الاردن ، قبل عمارة الاموي بنحو ستمئة سنة ، فمن أين وصل الرأس الى هذه المغارة؟ وكيف قطع هذه المسافة على الارض ، وهذه المسافة في الزمان ، ثم استقر سليما في هذا السفط ؟

أما تسمية الكنيسة بمار يوحنا فلا يدل على شيء ، لان عند المسيحيين أكثر من عشرين كنيسة ، في كل منها قبر ليحيى عليه السلام(٣) هذا وعندهم أكثر من عشرين قديسا باسم (مار يوحنا) فمن قال بأن الاسم المقصود هنا هو ليوحنا المعمدان ؟

وعلى فرض صحة الخبر الذي رواه ابن عساكر ، فانه لا يثبت الا أنهم وجدوا رأسا عليه اسم يحيى لا يعرف من كتبه ولا تاريخ كتابته ، وليس لدينا أي دليل على أن هذا القبر هو ليحيى ، وليس لدينا دليل (كذلك) على نفي أن فيه رأس يحيى عليه السلام • فالله اعلم بحقيقة الحال •

---

(١) انظر كتابي (من نفحات الحرم)

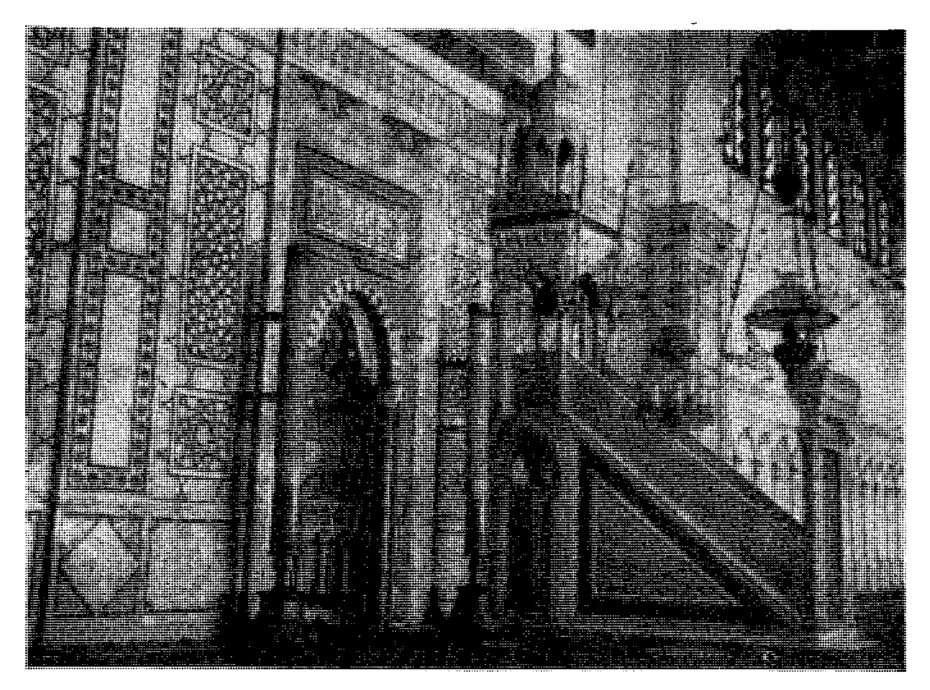
(٤) الهندية عازيا الى (الاختيار شرح المختار) .

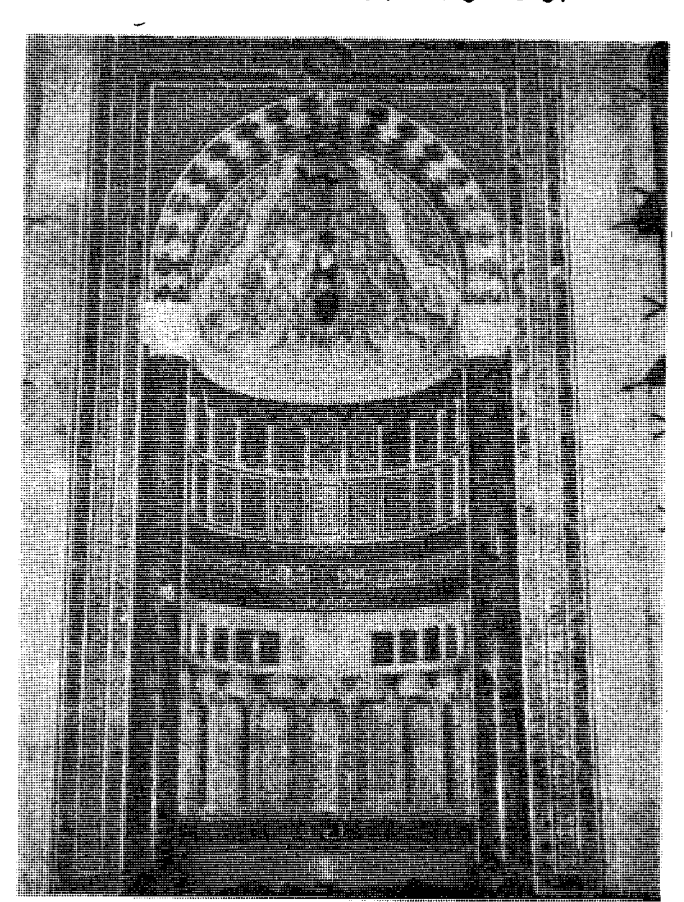
(٥) وفي قرية سبسطيا قرب نابلس حيث قتل، قبر له يقدسه النصارى

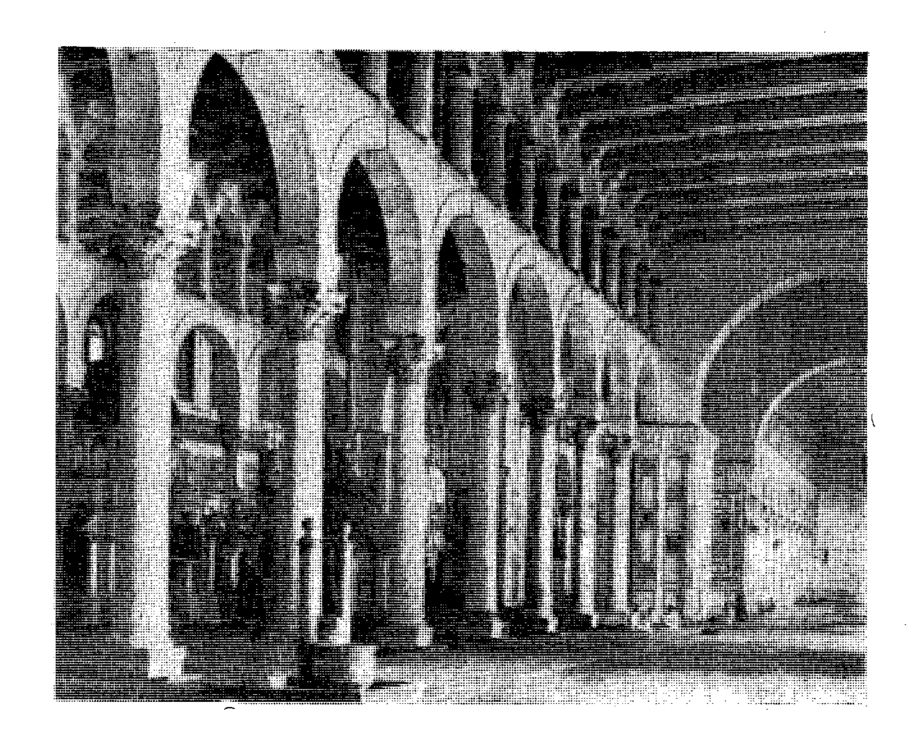
ووراء المحراب والمنبر ، الباب الذي سد من قديم ، ويبدو أعلاه الآن للمار من القباقبية ، ظاهرا من وراء الدكاكين .

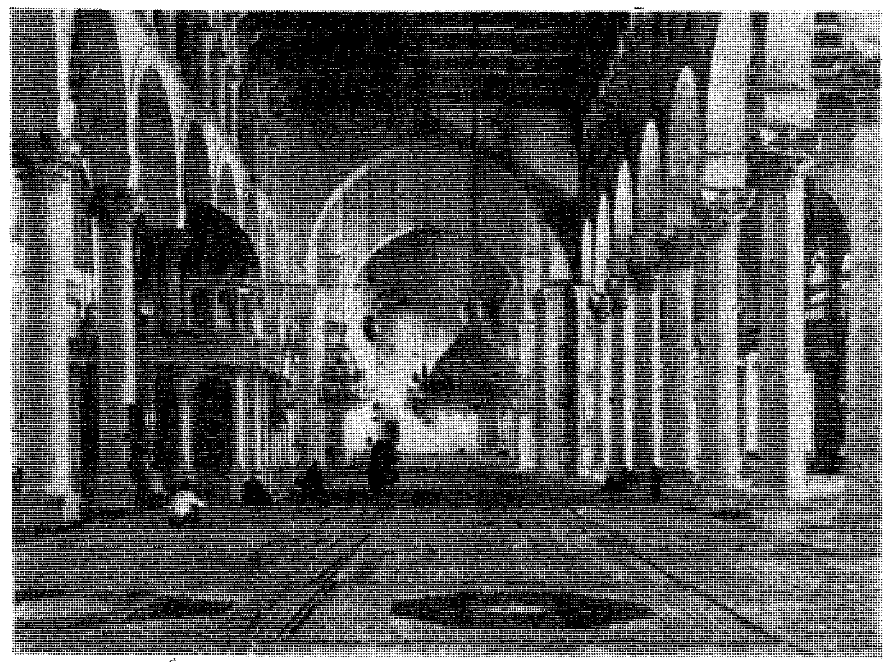
وكـــان بعد المنبر ، مقصورة الخطابة ، ثم بيت الخطابة ، وهي موجودة ، ثم محراب الشافعي ، ثم باب الزيادة ، ثم محراب الحنبلي ، في موضع المقصورة المسماة بمقصورة الخضر ، ثم قاعة الحنابلة ، ثم المئذنة الغربية ، ثم مشهد عروة (أو ابن عروة) على جانب باب البريد الايمن للداخل .

* * *


المنبر والمحراب الكبير


المحراب الكبير





القبر والبلاطة الوسطى في الحرم

عمارة الأموي

عمارة المساجد ، من هدي الانبياء وسنن المؤمنين ، وقد بنى ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما الصلاة والسلام الكعبة ، البيت الحرام ، وكان أول ما صنعه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة ، هو بناء مسجد المدينة ، وان كانت عمارة المساجد بالعبادة والعلم والايمان مقدمة على تثبيت الاركان ، وتعلية الجدران ، والاكثار من الزخارف والالوان ، بل ان زخرفة المساجد ، والزيادة في عمارتها على حد الضرورة مما كرهه الاسلام ورغب عنه السلف الصالح •

وقد نص الحنفية على ان الكتابة على جدرانها ، ولا سيما في القبلة، لا تستحسن (١) •

وكان هذا المسجد في الاصل معبدا وثنيا ، فأخذه النصارى فصيروه كنيسة ، فلما كان الفتح الاسلامي ودخل خالد عنوة من جهة الباب الشرقي ، ودخل ابو عبيدة صلحا من جهة باب الجابية ، تم الاتفاق على أن تقسم الكنيسة قسمين ، ما كان منها في الارض التي وصل اليها ابو عبيدة صلحا بقيت كنيسة ، وما كان منها فيما فتح عنوة صار مسجدا ، وكانت هذه قوانين الحرب المتعارفة ، وكان للظافر أن يمتلك المرافق العامة فيما فتحه بالسيف ، وبذلك القانون أخذ النصارى هذا المعبد الوثني من قبل وصيروه كنيسة •

---

(١) البزازية (على هامش الهندية) ٦:٣٧٠

وكان المسجد في أقل من نصف مساحته الآن (أي من باب النوفرة الى ما قبل القبة) ، وكان له محراب واحد هو محراب المالكية اليوم •

واستمرت الحال على ذلك الى ايام الوليد ، فكان النصارى يصلون فيؤذن المسلمون فيزعجونهم ، ويصلي المسلمون فيضرب النصارى النواقيس • وضاق المسجد بأهله ، وأراد الوليد أن يضم الكنيسة الى المسجد ، وكان الوليد هو الحاكم المطلق في نحو عشرين دولة من دول اليوم هي الجمهورية العربية المتحدة والعراق والاردن وفلسطين والحجاز واليمن وتركيا وليبيا وتونس ومراكش والجزائر واسبانيا والحبشة وايران والافغان وجمهوريات ارمينية وبخارى وتركستان وقسم من باكستان • ولكنه كان مع هذا السلطان مقيدا بقيد القرآن والقرآن والسنة يحرمان ظلم المواطن الذمي ، أي المواطن المسيحي بعرف الناس اليوم ، ولا يجوز التعدي عليه ما لم ينقض هو العهد ، لذلك لم يقدر أن يصدر أمرا بأخذ الكنيسة جبرا ، فدعا رؤوس النصارى وعرض عليهم أن يعطوه بقية الكنيسة ويبني لهم بدلا منها ، كنيسة أعظم منها ، فأبوا ، فعرض عليهم أن يبني لهم اربع كنائس ، ويعطيهم مبالغ ضخمة من المال فأبوا ، وقالوا اننا تتمسك بالعهد الذي كان بيننا وبينكم • فقال لهم : أنتم خالفتم العهد وأحدثتم كنائس جديدة لم يكن في المعاهدة بناؤها فأنا أهدمها •

وعزم على ذلك ، ودخل عليه أخوه المغيرة فوجده مهموما فقال : مالك يا أمير المؤمنين •

فخبره ، فقال : اخرج العهد فانظره • فأخرجه فنظر فيه ، فاذا القسم المفتوح عنوة ، يمتد الى آخر الكنيسة وبذلك تكون كلها حقا للمسلين، فألف لجنة مشتركة (اسلامية ونصرانية) فقامت بمسح ذلك ، فظهر بالمساحة ان الكنيسة كلها من حق المسلمين ، وأنها تدخل المسجد •

فقالوا يا أمير المؤمنين ، كنت أقطعتنا أربع كنائس ، وعرضت علينا من المال كذا وكذا ، فان رأيت ان تتفضل به علينا . فامتنع اولا ، ثم اعطاهم الكنائس الاربع ، وبنى لهم كنيسة مار يوحنا الكبرى ، أي ان الدولة الاسلامية ، في أقوى عصورها ، تبني للنصارى الكنائس من مالها ، ثم يتذرع المستعمرون بالخوف على النصارى في بلادنا من حكم الاسلام!

وقالوا : ان من يهدم الكنيسة يجن . فأخذ الوليد المعول وقال : أنا أحب أن أجن في سبيل الله وضرب به وتبعه الناس ، ثم دعوا باليهود فأكملوا هدمها ، ولم يبق في المسجد من الكنيسة الا الجدران وأساس الصومعتين الاماميتين ، على أن صاحب معجم البلدان يروي أنه نقض الحيطان وأعاد بناءها على أساس جديد حفر له حتى بلغ الماء .

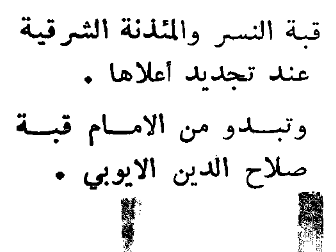
وسمع امبراطور القسطنطينية بذلك ، فأراد أن يصرفه عن عمارة المسجد ، فكتب اليه : ان كان هدم الكنيسة حقاً وصلاحا ، ولم يفعله أبوك ، انه لوصمة عليك . ولما ورد الكتاب على الوليد ، قعد يفكر في جوابه ، فدخل عليه الفرزدق الشاعر فقال له : جوابه حاضر ، وهو قوله تعالى (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) .

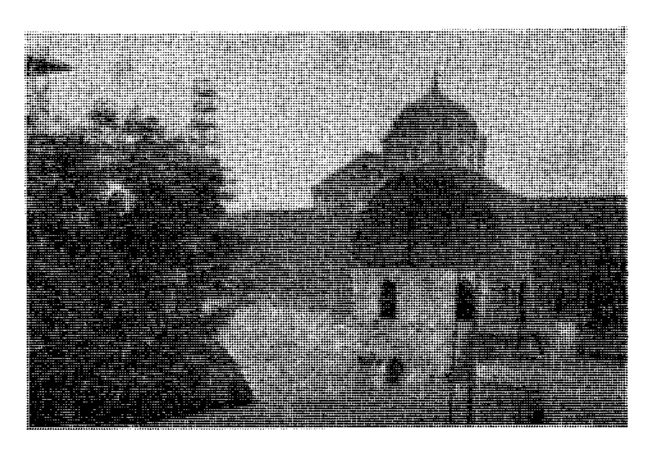
* * *

وحشد لبنائه العمال من كل مكان وأراد أن يقيم السقف على اسطوانات (اعمدة) فاقترح عليه بناء شامي ، أن يقصر الاعمدة ، ويعقد بعضها بأقواس ، ويقيم فوقها أعمدة صغارا ، لها قناطر تحمل السقف ، فصنع ذلك وبقي الى يومنا هذا .

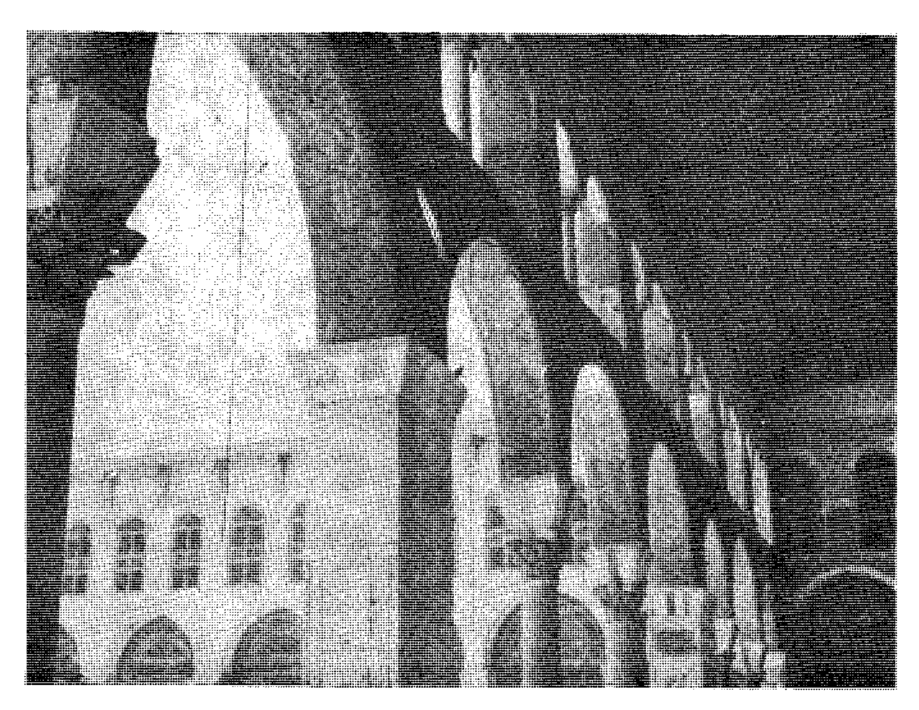


بقايا الدهليز
الشمالي والمئذنة





قبة النسر والمئذنة الشرقية
عند تجديد أعلاها .
وتبدو من الامام قبة
صلاح الدين الايوبي .



أعمدة الرواق الغربي في الصحن

هندسة الاموي :

وكانت هندسته مبتكرة ، شهد بذلك كل من رآه من قديم وحديث من المسلمين وغير المسلمين .

من ذلك أن المهدي لما قدم الشام في طريقه الى بيت المقدس ، دخل مسجد دمشق ، ومعه كاتبه أبو عبيد الله الاشعري ، فقال له : يا أبا عبيد الله سبقنا بنو أمية بثلاث .

قال : وما هن يا أمير المؤمنين ؟

— قال : هذا البيت (يعني المسجد) ، ونبل الموالي ، فان لهم موالي ليس لنا مثلهم ، وعمر بن عبد العزيز لا يكون فينا مثله أبدا .

ولما وصل الى بيت المقدس ورأى قبة الصخرة ، قال : يا ابا عبيدالله وهذه رابعة .

ولما دخل المأمون مسجد دمشق ، ومعه المعتصم ، ويحيى بن أكثم ، قال لهما :

— ما أعجب ما في هذا المسجد ؟

— قال المعتصم : ذهبه وبقاؤه فانا نجعله في قصورنا فلا تمضي عليه العشرون سنة حتى يتغير .

— قال : ما ذاك الذي أعجبني منه .

— قال يحيى : تأليف رخامه ، فاني رأيت شيئا ما رأيت مثله .

— قال : ما ذاك الذي أعجبني منه .

— قالا : وما الذي أعجبك ؟ .

— قال : بنيانه على غير مثال متقدم .

ووصفه احد الكتــاب ، وكان قدم دمشق سنة ٤٣٢ هـ . بأنه بكر

الدهر ، ونادرة الوقت ، وأن أمية أبقت به ذكرا لا ينقطع • وقال صديقنا الدكتور صلاح المنجد (1) بأن المستشرقين العارفين بالآثار مقرون بأن تخطيط المسجد وهندسته شيء مبتكر ، لا يشبه هندسة الكنائس البيزنطية ، وأن كثيرا منها يخرج عن طريقة العمارة السورية النصرانية المتوارثة •

بناء القبة

ولما أقيم هيكل البناء عمد الوليد الى رفع القبة وأرادها سامقة باسقة ، فلما تمت سقطت ، فشق ذلك على الوليد فجاءه بناء شامي ، فقال : أنا ارفعها بشرط •قال : وما هو ؟ قال : أن تعطوني عهد الله ألا يمد أحد غيري يده الى بنائها • قال : لك ذلك •

فحفر حتى بلغ الماء ، ثم وضع الاساس وغطاه بالحصر ، واختفى ، وطلبوه سنة كاملة فلم يصلوا اليه ، فلما كان بعد السنة جاء ، فقال له الوليد : ما دعاك الى ما صنعت ؟ فقال : تخرج معي حتى أريك • فخرج والناس معه ، حتى كشف الحصر ، فوجد البنيان قد انحط ونزل قليلا • قال : من هنا كان سقوطها فابن الآن فانها لا تهوي ان شاء الله • وبنى واستقرت القبة •

هدية اليهودية

وعزم على أن يغطي القبة بالذهب ، فنهاه العقلاء وأروه ان ذلك يستفرغ خزائن من المال ، ولا ينفع شيئا فأمر أن تغطى بالرصاص •

---

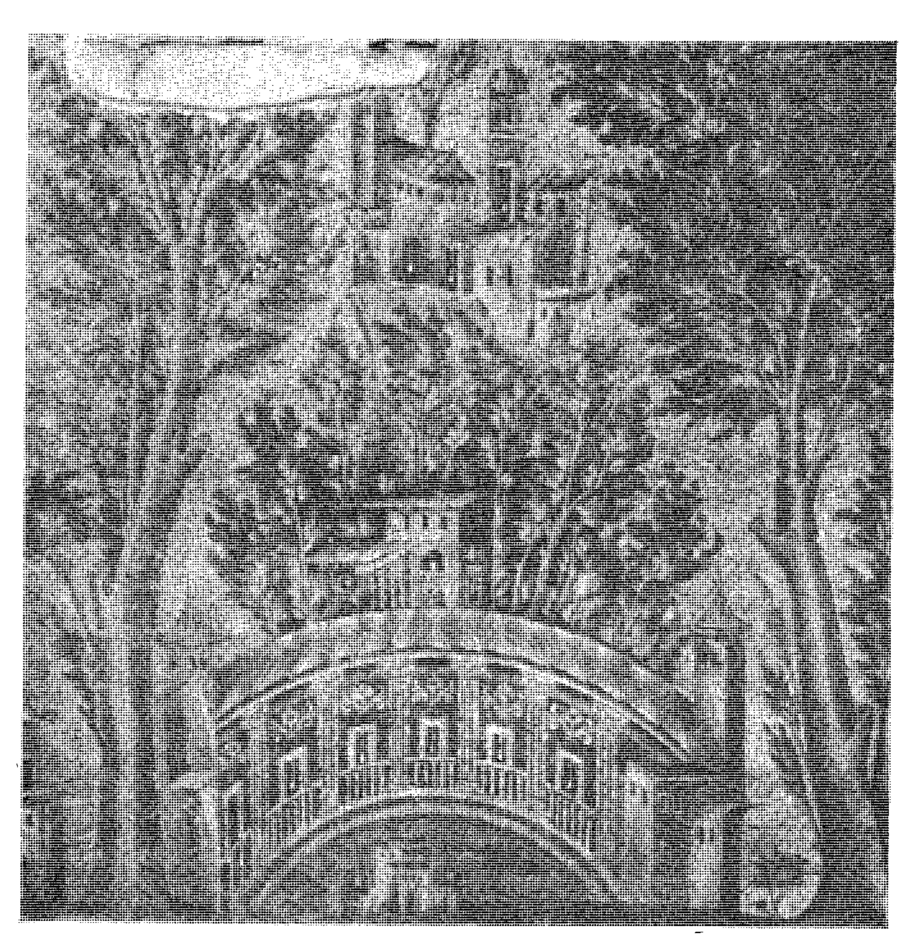
(1) في (مسجد دمشق) وهو نص ثمين في ذكر شيء مما استقر عليه المسجد الى سنة ٧٣٠هـ وكل ما في هذا النص موجود بعبارته أو بأكثر تفصيلا في ذيل الدارس

وجمع الرصاص من كل مكان ، وبقيت قطعة من السقف لم يجدوا لها رصاصا الا عند امرأة أبت أن تبيعه الا بوزنه ذهبا ، فكتب بذلك العامل الى الوليد ، فقال له : اشتره منها بوزنه ذهبا فلما قال لها ذلك ، قالت : هو هدية مني الى المسجد . فقال لها كيف ضننت به أولا الا بوزنه ذهبا ثم سمحت به هدية ؟ قالت : أنا لا أريد الذهب ولكن اردت أن اختبر عدل الاسلام . قالوا : وكانت يهودية . فكتب على صفائحه كلمة (لله) .

الأروقة والفيفساء

فتم المسجد صحنا مكشوفا ، حوله ثلاثة صفوف من الاعمدة من غرب وشمال وشرق ، وحرم مسقوف في وسطه رواق عال من الشمال الى الجنوب تتوجه قبة النسر ، وثلاثة أروقة من الشرق الى الغرب ، كانوا يسمونها البلاطات وكله من المرمر ، وقد أسدلت على ابواب الحرم وعلى الثلث الادنى من جدرانه ، الستور المزدوجة ، كما يكون اليوم في دور الموسرين المترفين ، ولكنها من الديباج والوشي ، وغطي باقي الجدار وجدران الصحن بالفسيفساء . والفسيفساء (والكلمة يونانية اصلها بسيفوسيس) فصوص صغيرة ، تكون من الزجاج والحجر ، ومن الرخام ومن الصدف ، مختلفة الالوان والاشكال ، فمنها المثلث والمربع والمستدير والمستطيل ، ترصف على طبقــة من الجص المصمغ او نحوه ، وربما صنعت فصوصها من مواد مختلفة ، تخلط وتطبخ على طريقة كانت معروفة ، وربما حليت بالذهب وغطيت بطبقة من الزجاج أو ما يشبهه . وقد توصلت وزارة اوقاف الشام الى صنع مثلها في هذه الايام .

وكانت أرض المسجد وجدرانه وسقوفه ، مغطاة بهذه الفصوص



من صور الفسيفساء في الاموي

المذهبة [1] ، التي جمعت صور بلاد الدنيا (كما قال المؤرخون) فما يريد المرء اقليما الا وجده في الجامع ، مصورا كهيئته ، فيراه من غير أن يتعب بالسفر اليه وصور كل شجرة ، مثمرة وغير مثمرة ، ومكة والكعبة فوق المحراب ، والى جنبها صورة كرمة ، حسبوا ما أنفق عليها فقالوا ، أنه بلغ سبعين الف دينار • والله أعلم •

ويظهر من خبر المأمون (وقد تقدم) أن هذه النقوش بقيت على رونقها وزينتها الى عصره •

وفي خبر أبي الليث الذي رواه ابن عساكر أنها بقيت الى سنة ٤٣٢ هـ ، بل لقد بقيت على حالها الى حريق سنة ٤٦١ كما نقل ابن كثير•

القناديل

وعلق في المسجد قناديل البلور ، في السلاسل المذهبة ، وجعل فيها المسك ، فكان الناس اذا اطفئت يأخذون بأنوفهم من ريح المسك ، وكان فيها ثريا ثمينة نادرة تسمى (القليلة) فبقيت الى أيام الامين ، وكان يحب البلور ، فكتب الى والي دمشق أن يوجه بها اليه ، فلما قتل ردها المأمون الى مكانها ، وكانت في محراب الصحابة (محراب المالكي الآن) ثم ذهبت فجعل مكانها برنية من زجاج ، ثم انكسرت فلم يجعل في مكانها شيء •

نفقات البناء

وهال الناس ما انفق الوليد على المسجد ، وتكلموا فيه ، وكانت للشعب رقابة فعلية على الخليفة ، وان لم تكن يومئذ صحف ولا برلمان،

---

(١) ثم رصفت ارضه بالبلاط بعد ذلك (كما تقدم) .

وأتاه حاجبه وقال : يا أمير المؤمنين ، ان الناس يتحدثون انك انفقت الاموال في غير حقها فنادى : الصلاة جامعة • وكان هذا النداء بمثابة دعوة للناس الى اجتماع شعبي طارىء ، فاجتمعوا في المسجد ، فقال لهم : لقد ابلغني حرسي انكم تقولون ان الوليد انفق الاموال في غير حقها ، ألا يا عمر بن مهاجر (وكان أمين الخزانة) قم فاحضر ما لديك من الاموال في بيت المال • فأتت البغال تدخل بالمال ويصب على الانطاع، حتى ان من كان في جهة الشمال لم يبصر من كان في جهة القبلة • قال : الموازين ! فأتت الموازين فوزن المال واحصي فوجدوا ان في بيت المال من المدخر ما يقوم بنفقات الدولة سنين •

صفائح التاريخ

وكتب تاريخ المسجد على صفائح مذهبة فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم • الله لا اله الا هو الحي القيوم • لا تأخذه سنة ولا نوم • له ما في السموات وما في الارض • منذا الذي يشفع عنده الا باذنه • يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم • ولا يحيطون بشيء من عمله الا بما شاء • وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم •

لا اله الا الله ، وحده لا شريك له ، لا نعبد الا اياه ربنا الله وحده ودیننا الاسلام ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم •

أمر ببنيان هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد امير المؤمنين في ذي القعدة من سنة ست وثمانين » •

النصارى والأموي

ولما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز ، ورأى النصارى عدله وسيرته، وحكمه برد مدينة سمرقند الى أهلها لما جاؤوا ببينة على أنها فتحت

غدرا (1) ، طمعوا في استرجاع الكنيسة ، ورفعوا دعواهم اليه واولوا بالمعاهدة التي شرطت لهم ألا تهـدم كنائسهم ، ولا تسكن ، فكلمهم وحاول ارضاءهم ودفع لهم مئة الف دينـار أي نحو مليوني درهم • فأبوا • فأمر بأن تعاد اليهم الكنيسة ، وكلف محمد بن سويد الفهري بهذه المهمة فأكبر ذلك محمد واكبره الناس ، وقالوا : كيف ندفع اليهم مسجدنا بعدما صلينا فيه وقرأنا فيهدم فيعاد كنيسة ؟ •

فقال رجل منهم : ارفعوا دعوى (مقابلة) الى أمير المؤمنين ، بأننا تتمسك بالمعاهدة ، والمعاهدة تحمي كنائسهم التي كانت حين الفتح ، ولكنها تمنعهم ان يحدثوا غيرها ، وقد احدثوا بعد الفتح سبع كنائس ما لهم فيها حق ، وعليهم بحكم المعاهدة ان يهدموها • فان احبوا فانا نعطيهم الكنيسة التي صارت مسجدا ، ونهدم كل ما أحدثوا من كنائس، وان شاؤوا تركت لهم كل كنيسة احدثوها ، ونجعل للمعاهدة ملحقا نعترف لهم بها فاستمهلوا ، ثم قبلوا بذلك ، وتنازلوا عن دعواهم •

عمر وزخارف الأموي

ثم نظر عمر الى هذه الزينة ، وهذه الزخارف ، فعزم على ابطالها ، لان كل ذلك مخالف لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في بناءالمساجد، والاسلام يكره زخرفـة المساجد ، والسرف في بنـائها ، لئلا تشغل المصلين بروعة بنائها عن مراقبة ربهم ، وحسن التوجه اليه ، وكل مـا نرى في المساجد الآن من الزخرف والفن والنقوش والتعالي في البنيان والتزيّد من الفرش ، كل ذلك مما رغب الاسلام عنه وكرهه ، كما كره اقامة القبور فيها والكتابة على جدرانها •

ثم ان عمر بن عبد العزيز قال : لقـد هممت أن اعمـد الى تلك الفسيفساء ، وذلك الرخام فاقلعه ، واجعل مكانه طوبا ، وانزع تلك

(1) انظر (قضية سمرقند) في كتابي (قصص من التاريخ) .

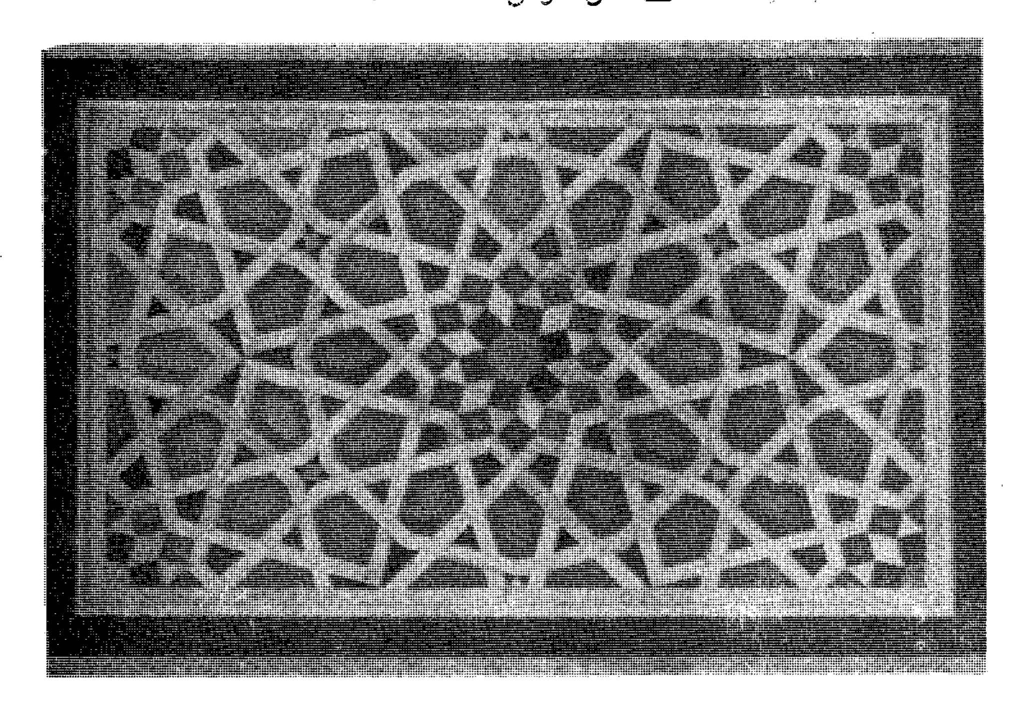
السلاسل واجعل مكانها حبالا ، وانزع تلك البطائن (أي الستائر) فأبيع جميع ذلك ، وادخله بيت المال ، فبلغ ذلك أهل دمشق ، فأشتد ذلك عليهم ، فخرج اليه اشرافهم ، وفيهم رجل يقال له خالد،فقال: ائذنوا لي حتى اكون انا المتكلم • فأذنوا له • فلما أتوا دير سمعان ، استأذنوا على عمر ، فأذن لهم، فلما دخلوا سلموا عليه ، فقال خالد : يا أمير المؤمنين بلغنا أنك هممت أن تفعل كذا وكذا في مسجدنا ، فقال لهم : رأيت أموالا انفقت في غير حقها وأنا مستدرك ما ادركت فأجعل قرارها في بيت المال ، فقال له خالد : والله ما ذلك لك يا أمير المؤمنين • فقال له : لمن هو ؟ ألأمك الكافرة ؟ وغضب عمر ، وكانت ام خالد نصرانية(١)• فقال له : ان تكن كافرة ، فقد ولدت مؤمنا • فاستحيا عمر ، وقال : صدقت • ثم قال:ما معنى قولك ، ما ذلك لي ؟ فقال : لانا كنا معشر أهل الشام واخواننا من اهل مصر ، واخواننا من أهل العراق ، نغزو فيفرض على الرجل منا أن يحمل من أرض الروم قسما من الفسيفساء ، وذراعا في ذراع من رخام ، فيحمله أهل العراق وأهل حلب الى حلب ، ويستأجرون من يحمله الى دمشق ويحمله أهل حمص الى حمص ويستأجرون من يحمله الى دمشق ويحمل أهل دمشق ومن وراءهم حصتهم الى دمشق • فذلك قولي ، ما ذلك لك • فسكت عمر ، ثم جاء كتاب من يزيد بن معمر يخبره، أن قاربا ورد عليه من رومية فيه عشرة من الروم، عليهم رجل منهم ، يريدون الوفود على أمير المؤمنين ، فكتب اليه ان وجههم الي ، ووجه معهم عشرة من المسلمين واجعل عليهم رجلا منهم وليكن يحسن التكلم بالرومية ولكن لا يعلموهم بأنهم يعرفون لغتهم ، وذلك لاجل أن يحملوا كلامهم ، ففعل ما أمره بـه وساروا حتى أتوا دمشق ، فنزلوا خارج باب البريد ، فسأل الروم رئيس العشرة من المسلمين ، أن يستأذن لهم الوالي في دخول المسجد ، فأذن لهم فمروافي

(١) هو اذن خالد بن عبد الله القسري

الصحن حتى دخلوا من الباب الذي يواجه القبة ، فكان اول ما استقبلوه المنبر ، ثم رفعوا رؤوسهم الى القبة فخر رئيسهم مغشيا عليه ، فحمل الى منزله فأقام ماشاء الله أن يقيم ثم أفاق فقالوا له بالرومية : ماقصتك ؟ عهدنا بك من رومية وماانكرنا منك شيئا ، وصحبتنا في طريقنا فما انكرناك ، فما الذي عرض لك حين دخلت هذا المسجد ؟ فقال : انا معشر أهل رومية تتحدث أن بقاء العرب قليل ، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة سيبقونها ، فلذلك أصابني ما أصابني ، فلما قدموا على عمر أخبروه بما سمعوا منه ، فقال : لا أرى مسجد دمشق الا غيظا على الكفار فنزل عما كان هم به من أمره .

من نقوش السقف

▲ من نقوش السقف ▼



اطوار الأموي واحداثه

مرت بالمسجد احداث جسام ، لا استطيع أن استقصيها في هـذه العجالة انما اعرض اليها عرضا ، وموعدنا بتفصيل امرها كتابي الكبير عن الجامع ، ان وفق الله اليه وأذن باتمامه •

فمن أكبر الاحداث التي أصابته الحرائق •

الحرائق والزلازل

وكان بقي سليما ، جدرانه كلها وسقوفه مغطاة بفصوص الفسيفساء المذهبة ، ونقوشه بادية ، وستره مسدلة ، الى سنة ٤٦١ ، حين انقسمت الدولة دولتين ، وصارت الخلافة خلافتين ، وادعى العبيديون أنهم من نسل فاطمة رضي الله عنها، وأقاموا حكومةباسمها ، اتخذت لها غيرمذهب جمهور المسلمين مذهبا ، واحدثت منكرات وبدعا • وكان الخلاف قد استحكم في دمشق بين غلمان العباسيين وغلمان الفاطميين ، ووصل الى سل السيوف واراقة الدماء ، والترامي بالنار ، فأصابت النار دار الامارة وهي الدار الخضراء (التي لم يبق منها الآن الا مصبغة صغيرة في زقاق ضيق ،اسمها المصبغة الخضراء) فاحترقت الدار وامتد الحريق الى المسجد ، فاكلته النار اكلا ومحت محاسنه ، واذهبت كل ما كـان فيه ، فلم يبق منه الا الجدران الاربعة • وصارت ارضه بعد الفسيفساء التي تأخذ العقول تلالا من التراب ، طينا في الشتاء ، وغبارا في الصيف وجمعت فصوص الفسيفساء فاودعت في المشاهد ، الى ان اخرجها ناظر المسجد القاضي الشهرزوري أيام السلطان نور الدين •

وبقي المسجد مخربا اربع عشرة سنة حتى جددت عمارة السقف والقبة أيام ملكشاه السلجوقي على يد الوزير نظام الملك (مؤسس المدرسة النظامية) . أما الصحن فبقي ترابا وطينا ، حتى بلط أيام الملك العادل بعد الستمئة . كما مر في الكلام على بلاط الجامع .

وفي سنة ٥٦٢ كان حريق حي اللبادين (النوفرة) فسرت النار الى الاموي ، فأحرقت قسما منه من جهة باب جيرون .

وفي سنة ٥٧٠ اصابه حريق جزئي آخر ، حين احترقت مدرسة الكلاسة وامتدت النار الى مئذنة العروس فاحترقت .

وفي سنة ٦٤٦ احترقت سلالم المنارة الشرقية والبيوت التي في اسفلها وتضعضعت .

وفي سنة ٦٨١ كان حريق جزئي آخر ، اذ احترق سوق اللبادين وسوق جيرون فامتدت النار الى حيطان الجامع ووصلت الى قسم من السقف .

وفي سنة ٧٤٠ كان الحريق الكبير في دمشق ، فأكلت النار اسواقا برمتها وكانت خسائر فادحة في الاموال ، ووصلت النار الى الجامع فاحترقت المئذنة الشرقية وقسم من الجانب الشرقي .

وأصابه حريقان جزئيان سنة ١٠٦٤ وسنة ١١٣١ .

وكان الحريق الثاني الذي شمل المسجد كله هو الحريق الاخير سنة ١٣١١ وسيأتي حديثه .

أما الزلازل التي تتابعت على المسجد فمنها :

زلزال سنة ١٣١ الذي انشق منه سقف المسجد على طوله .

وفي سنة ٢٣٣ كان زلزال شديد اسقط المنارة فانهالت حجارتها على المسجد وخربت ربعه وتراكمت فيه كأنها جبل .

وفي سنة ٥٥٢ كانت زلزلة عظيمة اسقطت كثيرا مما كان قد بقي من فصوص الفسيفساء •

وفي سنة ٥٩٧ كانت أشد زلزلة على الاموي اذ أسقطت قسما من المنارة الشرقية وتشققت منها قبة النسر وقيل أنها سقطت بعد ذلك على الناس •

وزلزال سنة ٧٠٢ الذي تشققت منه بعض جدران الجامع •

وزلزال سنة ١١٧٣ الذي سقطت منه قبة عائشة وتخرب بعض المسجد •

اصلاحات في الأموي

اما الاصلاحات الكبرى فيه فمنها :

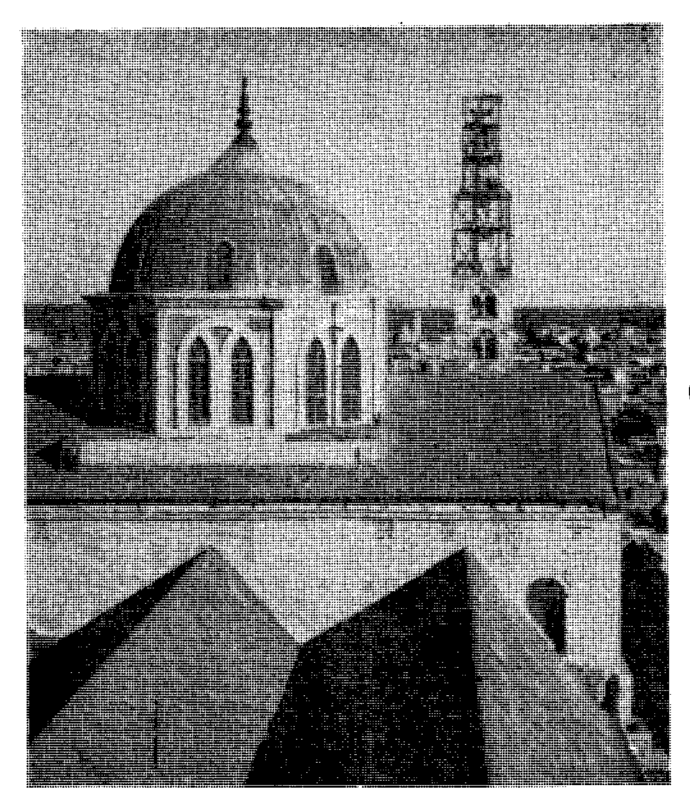
انها جددت عمارة الحائط الشمالي سنة ٥٠٣ ايام المستظهر العباسي بأمر الوالي طغتكين •

وسنة ٧٢٨ نزع الرخام عن الجدار القبلي من الجهة الغربية فوجد فيه خلل فحضر تنكز نفسه ومعه القضاة والخبراء وتقرر هدمه واصلاحه واستأذن السلطان فأذن له ، فعمره واستنفر له الناس ، فتطوعوا للعمل وأخذوا له حجارة وجدوها في أصل المنارة الغربية المزالة عند الغزالية ، فتمت العمارة في أقل من ستة اشهر • وفي سنة ٧٢٩ كمل ترميم الحائط القبلي •

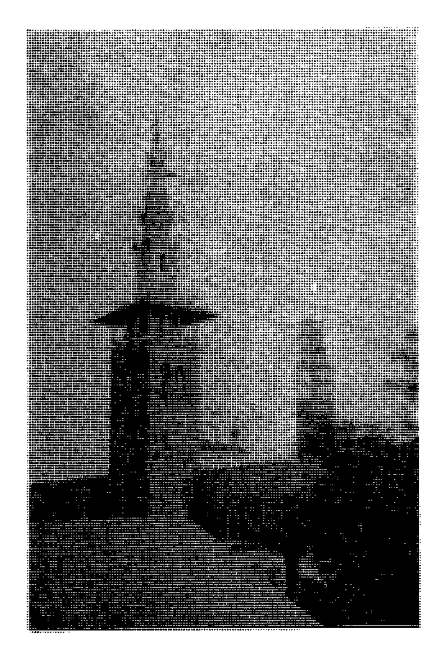
وفي سنة ٧٣٠ رمم الجانب الشرقي حتى صار كالغربي •

القبة

قبة النسر جددت سنة ٤٧٥ وسقفت المقصورة والطاقات والاركان الاربعة في عهد نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي •



قبة النسر والمنـــارة
الشرقية (مئذنة عيسى)
أثناء تجديد أعلاها



مئذنة العروس ومئذنة عيسى
عند تجديد أعلاها

وفي سنة ٥٧٥ جدد صلاح الدين ركنين من القبة .

وفي شوال سنة ٦٠٢ اصلحت عدة من دعائم القبة من جهة الشمال .

وفي سنة ٦١١ اسندت قبة النسر بأربعة اوتاد من الخشب طول كل منها ٣٢ ذراعا بذراع العمال جيء بها من بساتين الغوطة .

وفي سنة ٦٧٨ جددت اربعة دعائم في قبة النسر من ناحية الغرب .

أما القبة القائمة الآن فهي والحرم كله من بناء أهل الشام بعد الحريق الاخير ، كما سيأتي .

المآذن

أما المآذن فقد كان في الزوايا الاربع قبل ان يصير جامعا اربع صوامع ، فتهدمت الصومعتان الشماليتان من القديم ولم تجددا وبقي أساسهما ، وأخذ من حجارة الاساس في الصومعة الشمالية الغربية لبناء الجدار القبلي سنة ٧٢٨ . ولما بنى الوليد المسجد رفع فوق الصومعتين الاماميتين المئذنتين (الغربية والشرقية) وبنى مئذنة وسط الجدار الشمالي هي مئذنة العروس وجعلها مذهبة كلها من اعلاها الى اسفلها .

واحترقت المئذنة الشمالية (العروس) في حريق مدرسة الكلاسة في المحرم سنة ٥٧٠ فجددها السلطان صلاح الدين .

وفي سنة ٦٤٦ احترق القسم الاعلى من المنارة الشرقية وسلالمها والغرف التي في اسفلها ، واعادها الملك الصالح الايوبي . وفي اسفل المنارة الشرقية بيت طهارة وغرفتان . أما الغربية فبأسفلها قاعة بلا ماء جددها السلطان قايتباي المتوفى سنة ٩٠١ بعد خرابها في حرب تيمورلنك وكان أول يوم أذن فيها بعد تعطيلها وتجديدها ٢ رمضان ٨١٤ . وأقيم في ذي القعدة ٨١٤ درابزين مئذنة العروس .

وسنة ٨١٦ فرغ من بناء الغربية وكان قد تخرب رأسها في حرب تيمورلنك .

وقد جدد النصف الاعلى من مئذنة العروس من نحو خمسين سنة.

ونقض في ايامنا النصف الاعلى من المئذنة الشرقية لخلل ظهر فيه وأعيد كما كان .

المشاهد

وفي سنة ٥٩٦ جدد مشهد عروة وفتح بعد ما اغلق مدة (وربما سمي مشهد ابن عروة وكان يسمى قديما مشهد علي ويدعى اليوم مشهد اليافي وهو معد اليوم للوضوء) .

وفي سنة ٦٦٨ جدد الملك الظاهر مشهد زين العابدين (مشهد الحسين) بعدما استولى عليه الخراب ، وطرد من كانوا يتخذونه ملجأ الا واحدا منهم رأى فيه الصلاح والعبادة ، واغلق مدة في أيام العثمانيين وأهمل فجدده الوالي سليمان باشا وفتحه .

وفي سنة ٦٩٨ جدد مشهد عثمان (المتخذ الآن بهوا للاستقبال) باشراف ناظر الجامع الناصر بن عبد السلام وجعل له امام راتب .

الرخام والفسيفساء

في سنة ٦٣٠ جدد ترخيم باب الجامع الشرقي .

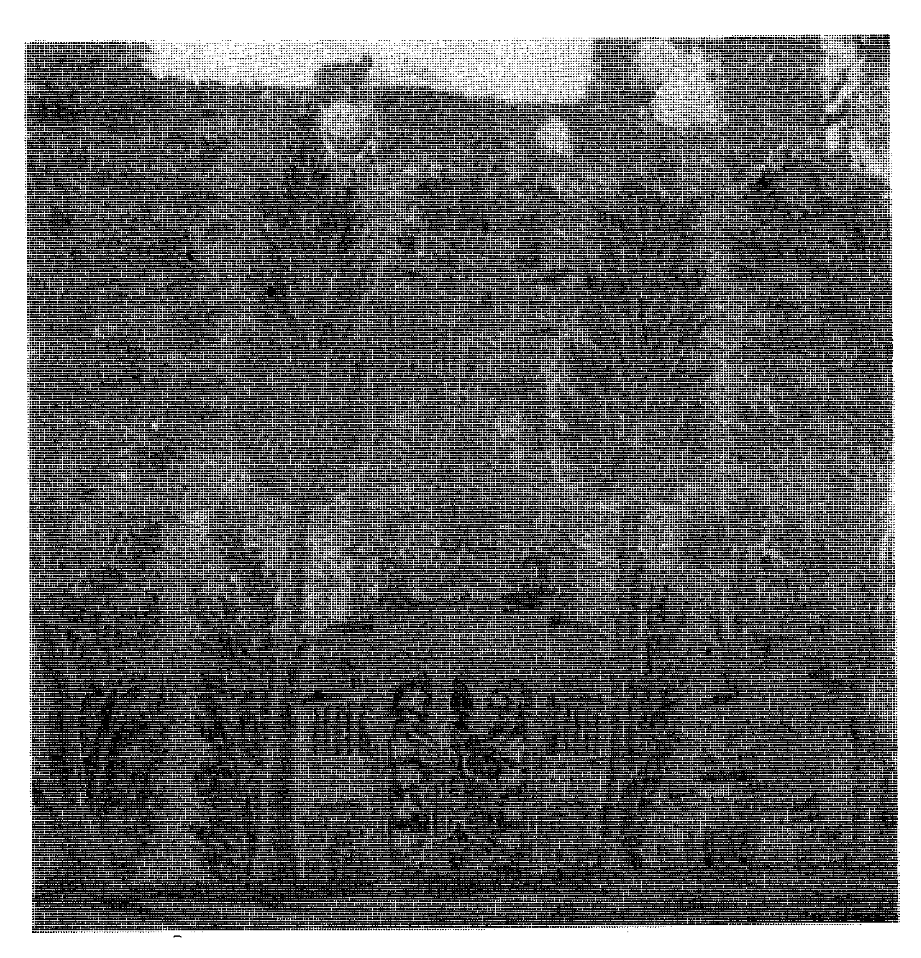
جدد الظاهر(١) نحو سنة ٦٦٨ كثيرا من الرخام في الحائط الشمالي وكثيرا من الفسيفساء في الجدار الغربي ، واصلح رخامه ورمم وجلب

(١) وسيأتي نص فيه تفصيل ذلك .

له الرخام من كل جهة فكان أحسن مما عمل قديما وانفق في ذلك عشرين الف دينار • وفي سنة ٧٢٧ كمل ترخيم الحائط الشمالي بامر تنكز وعهد الناظر ابن المرحل •

وفي سنة ٧٣٠ جمعت فصوص الفسيفساء الباقية لتجعل في الجدار القبلي للصحن في عهد ابن المرحل ناظر الجامع وباذن نائب السلطنة تنكز والقاضي الاخنائي الشافعي • ولكن ذلك لم ينفذ كما يظهر •

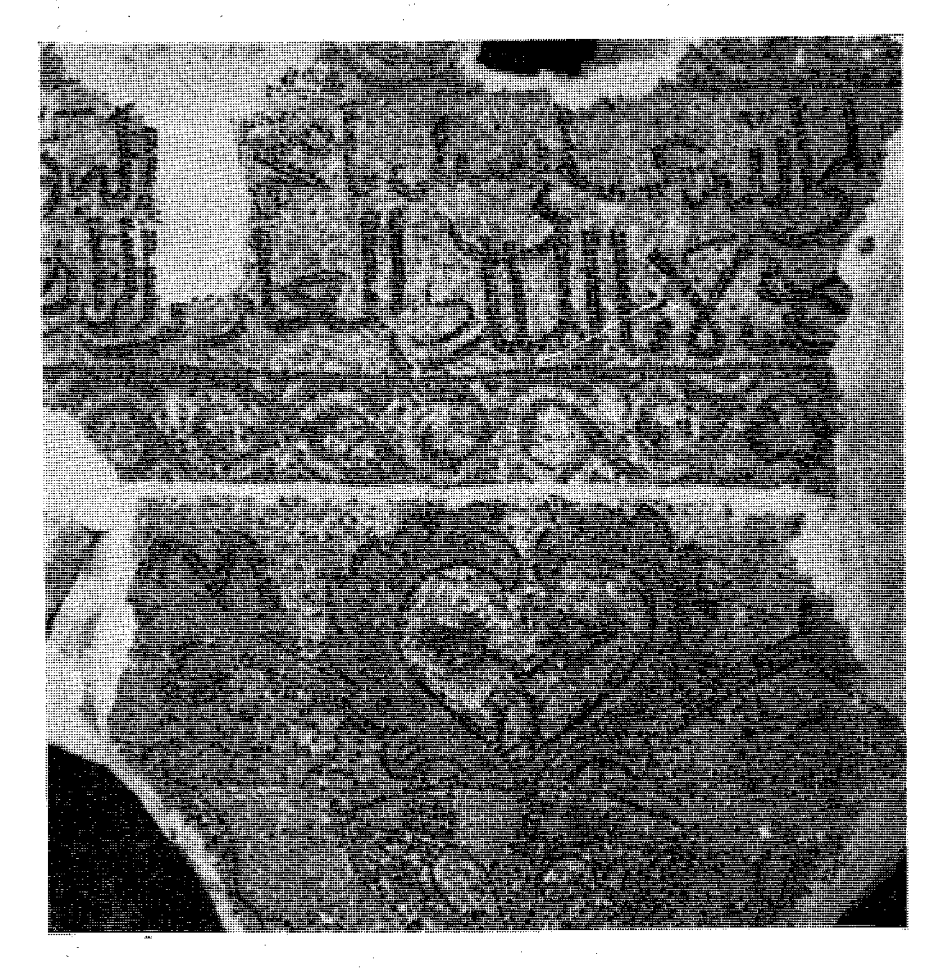
وفي سنة ٧٤٠ جدد الناصر بن قلاوون ترخيم مشهد ابي بكر •



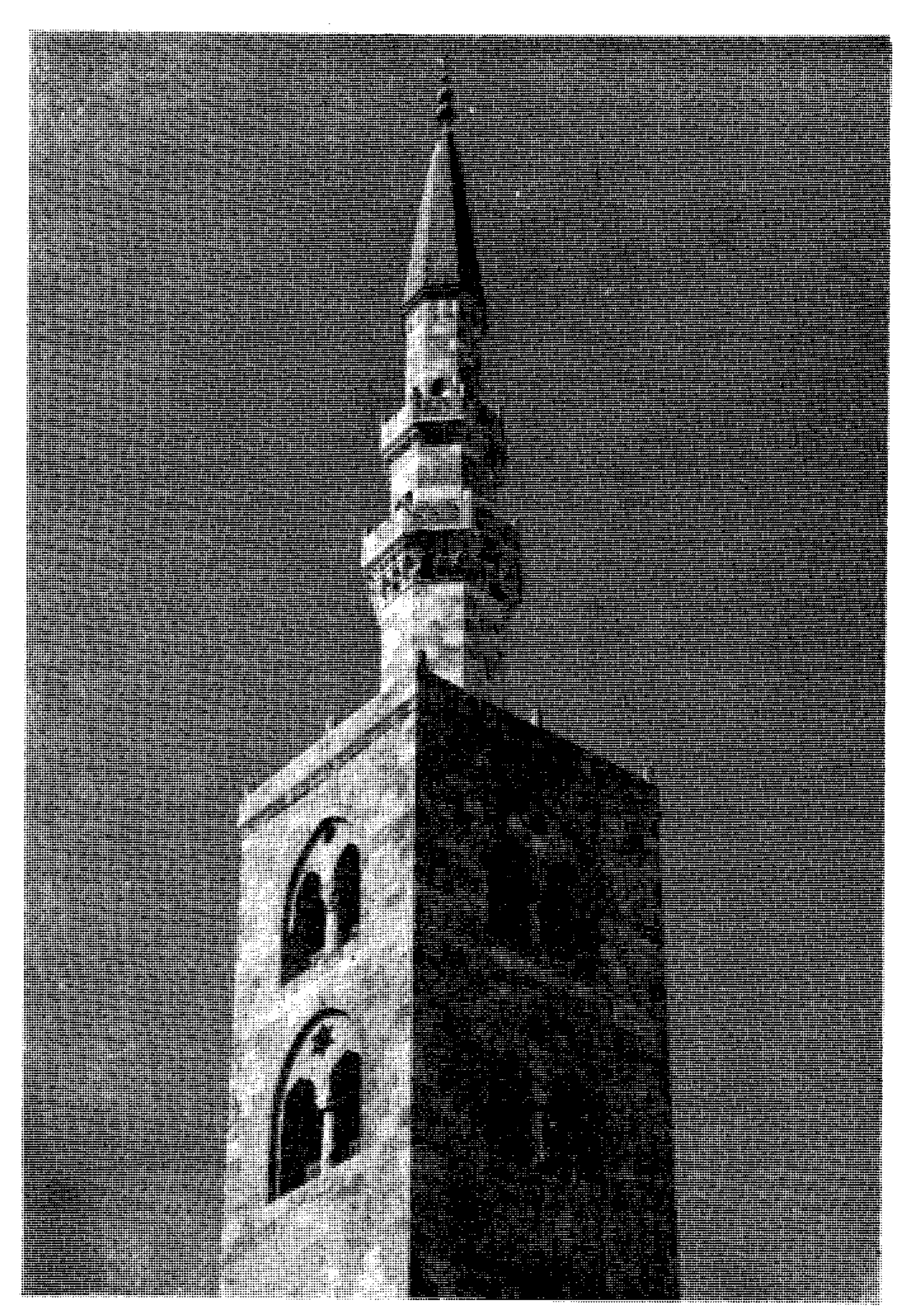
من صور الفسيفساء في الاموي



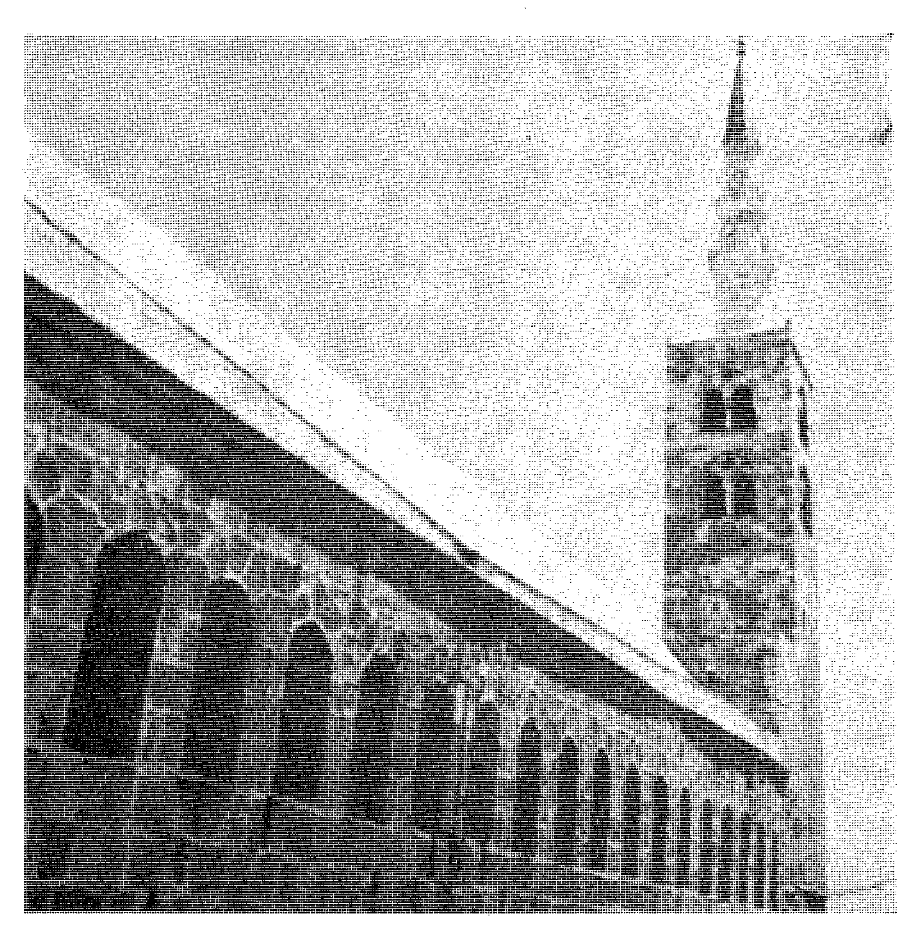
من مناظر الفسيفساء في الاموي



من صور الفسيفساء في الاموي



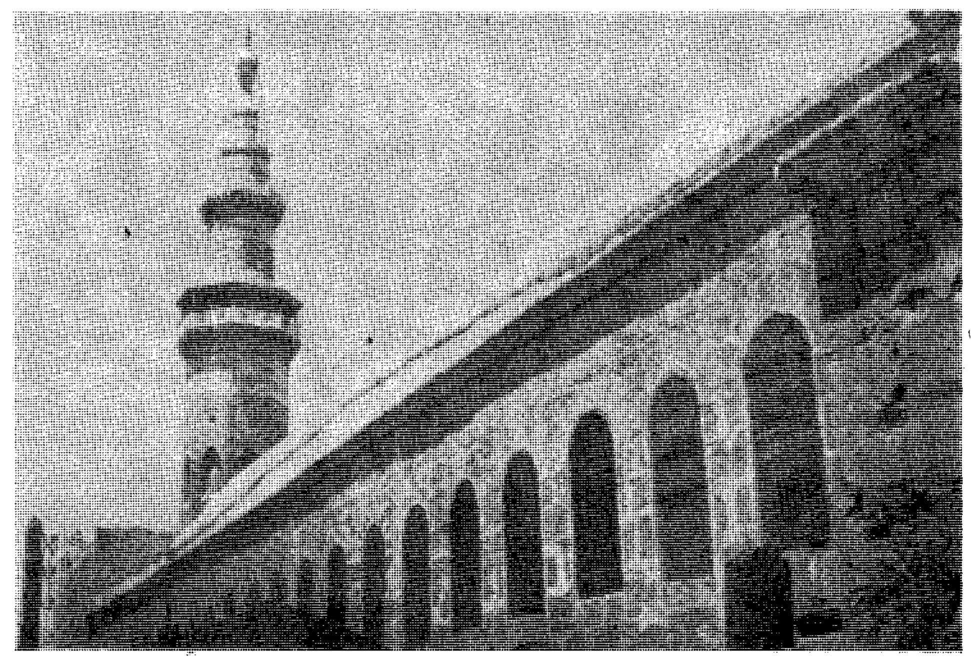
المئــذنة الشرقية



المنارة الشرقية (مئـذنة عيسى) وقسم من الجدار القبلي



الواجهة الشمالية للحرم كما تبدو من الصحن



المئذنة الغربية مع قسم من الجدار القبلي



المئـذنة الغربية

من أخبار الأموي

وفي رمضان سنة ٤١١ أقيم في الصحن عمودان من الشرق والغرب جعلا لتنوير المسجد وذلك باذن قاضي البلدة وهما موجودان الى الآن.

وفي سنة ٧٣٦ وجد حائط دار الخطابة متشققاً فخرب ووجد فيه حجارة كبار وظهر باب كبير مليح له اسكفة وجوانب والجميع مخرب فنقلت الحجارة الكبار الى باب الفرج فاستعين بها في بنائه .

وفي سنة ٦٩٩ نظر الملك الظاهر في اوقاف الجامع وما يصرف منها لارباب الرواتب فمن كان منهم مستغنيا وليس به انتفاع في علم أبطله ، ومن كان منهم ذا حاجة ولم يكن لديه علم رتب له على بيت المال مايقوم به ، وصرف ماكان مقررا لمن أبطله في مصالح الجامع وفيمن للمسلمين الانتفاع بعلمه ، ورتب فيه مصحفا يقرأ فيه بعد صلاة الصبح تحت قبة النسر ، وأجرى على القارىء فيه كل شهر شيئا معلوما . وكان بصحن الجامع الاموي حواصل للمنجنيقات ، وحواصل للامراء فيها اشياء من خيم وغيرها فأمر بازالتها ، فاتسع الجامع وازداد رونقه ، وتطلب كتب الوقف ، وكانت قد اهمل النظر فيها ، وأجرى الوقوف على شروطها من واقفيها ، وانما كان المتولي للنظر فيها يعمل بمقتضى رأيه في منعه واعطائه ، فحملت اليه بعدما شق على الباحث عنها وجودها ، فوجدها قد تمزق القديم منها ، وما كان وقفه الملك العادل نور الدين محمود ومن بعده من الملوك قد كادت كتبها تتلف ، فأمر باحياء خطوطها واثباتها عند سائر القضاة ، واجتهد فيها حسب مااقتضته آراؤه السعيدة وافعاله الرشيدة، وكذلك فعل في وقف البيمارستان الكبير، وليس ذلك بمستنكر

من خلائقه في اقامة منار الاسلام ، ورفــع من خفضه البخوت علــى التخوت من العلماء الاعلام ، وكانت سائر الوقوف المرسلة على ماوقفت عليه مضافة الى وقف الجامع الاموي ، وكانت لاتصرف في اربابهــا ، وانما تصرف في مرتب الجامع ، فافردها منه ، وولاها من يصرفها على شروط من وقفها ، وأثبت كتبها كما فعل فيما عداهــا من الاوقــاف الجامعية والبيمارستانية .

وفي سنة ٨٣٠ كشفوا عن رؤوس الجسور في الجامــع فوجدوا بضعة عشر جسرا تآكلت فاصلحت .

وفي أيام الملك الناصر الايوبي فرض من ماء قنوات زيادة على ماء باناس (بانياس) للاموي مقدار ١٧ اصبعا .

الأموي في أواخر القرن السادس الهجري

زار ابن جبير الجامع الاموي في اواخر القرن السادس ووصفه في رحلته وصفا دقيقا صادقا ، رأيت أن أثبته بحروفه في هـذه الرسالة ، وأثبت بعده حديثه عن صعوده الى قبة المسجد .

مساحته

قال ابن جبير : ان ذرعه في الطول من الشرق الى الغرب مائتا خطوة وهي ثلاثمائة ذراع وذرعه في السعة من القبلة الى الجوف مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة ، وهي مائتا ذراع ، فيكون تكسيره من المراجع الغربية اربعة وعشرون مرجعا وهو تكسير مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم غير ان الطول في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من القبلة الى الشمال وبلاطاته [1] المتصلة بالقبلة ثلاث مستطيلة من الشرق الى الغرب سعة كل بلاطة منها ثمان عشرة خطوة والخطوة ذراع ونصف وقد قامت على ثمانية وستين عمودا منها اربع وخمسون سارية وثماني ارجل جصية تتخللها واثنتان مرخمتان ملصقتان معها في الجدار الذي يلي الصحن واربع ارجل مرخمة أبـدع ترخيم مرصعة بفصوص من الرخام ملونة قـد نظمت خواتيم وصورت محـاريب واشكالا غريبة قائمة في البلاط الاوسط تقل قبة الرصاص مع القبـة التي تلي المحراب ، سعة كل رجل منها ستة عشر شبرا ، وطولها عشرون شبرا ، وبين كل رجل ورجل في الطول سبع عشرة خطوة وفي العرض ثلاث عشرة خطوة ، فيكون دور كل رجـل منها اثنين وسبعين شبرا

أعمدته

(١) مابين كل صفين من الاعمدة كانوا يسمونه بلاطة وتسمى اليوم (معزبة) .

ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته ، الشرقية والغربية والشمالية ، سعته عشر خطا وعدد قوائمه سبع واربعون منها أربع عشرة رجلا من الجص ، وسائرها سوار ، فيكون سعة الصحن حاشا المسقف القبلي والشمالي مائة ذراع وسقف الجامع كله من الخارج الواح رصاص ، وأعظم ما في هذا الجامع المبارك قبة الرصاص المتصلة بالمحراب سامية في الهواء عظيمة الاستدارة قد استقل بها هيكل عظيم هو غارب لها يتصل من المحراب الى الصحن وتحته ثلاث قباب (١) قبة تتصل بالجدار الذي الى الصحن وقبة تتصل بالمحراب وقبة تحت قبة الرصاص بينهما ، والقبةالرصاصية قد اغصت الهواء، فاذا استقبلتها ابصرت منظرا رائعا ومرأى هائلا يشبهه الناس بنسر طائر ، كأن القبة رأسه والغارب صدره ونصف جدار البلاط عن يمين ونصف عن شمال جناحاه ، ووسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة ، فهم يعرفون هذا الموضع من الجامع بالنسر ، لهذا التشبيه الواقع عليه • ومن أي جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء منيفة على كل علو كأنها معلقة من الجو • والجامع المكرم مائل الى الجهة الشمالية من البلد وعدد شمسياته الزجاجية المذهبة الملونة ، اربع وسبعون منها في القبة التي تحت قبة الرصاص عشر ، وفي القبة المتصلة بالمحراب وما يليها من الجدار اربع عشرة شمسية وفي طول الجدار عن يمين المحراب ويساره اربع واربعون وفي القبة المتصلة بجدار الصحن ست وفي ظهر الجدار الى الصحن سبع وأربعون شمسية وفي الجامع المكرم ثلاث مقصورات ، مقصورة الصحابة رضي الله عنهم ، وهي اول مقصورة وضعت في الاسلام وضعها معاوية ابن ابي سفيان رضي الله عنهما وبازاء محرابها المقاصير عن يمين مستقبل القبلة باب حديد كان يدخل معاوية رضي الله عنه الى المقصورة منه الى المحراب وبازاء محرابها لجهة اليمين مصلى أبي الدرداء رضي الله عنه وخلفها دار

اروقة الصحن

قبابه

صورة النسر

شمسياته

المقاصير

(١) وهي غير موجودة اليوم .

معاوية رضي الله عنه وهي اليوم سماط عظيم للصفارين يتصل بطول جدار الجامع القبلي ، ولا سماط أحسن منظرا منه ولا أكبر طولا وعرضا، وخلف هذا السماط على مقربة منه دار الخيل برسمه وهي اليوم مسكونة وفيها مواضع للكمادين وطول المقصورة الصحابية المذكورة اربعة واربعون شبرا وعرضها نصف الطول ويليها لجهة الغرب في وسط الجامع المقصورة التي أحدثت عند اضافة النصف المتخذ كنيسة الى الجامع حسبما تقدم ذكره، وفيها منبر الخطبة ومحراب الصلاة ، وكانت مقصورة الصحابة اولا ، في نصف الخط الاسلامي من الكنيسة ، وكان الجدار حيث أعيد المحراب في المقصورة المحدثة ، فلما أعيدت الكنيسة كلها مسجدا صارت مقصورة الصحابة طرفا في الجانب الشرقي ، وأحدثت المقصورة الاخرى وسطا ، حيث كان جدار الجامع قبل الاتصال • وهذه المقصورة المحدثة أكبر من الصحابية ، وبالجانب الغربي بازاء الجدار مقصورة اخرى هي برسم الحنفية يجتمعون فيها للتدريس وبها يصلون وبازائها زاوية محدقة بالاعواد كأنها مقصورة صغيرة وبالجانب الشرقي زاوية اخرى على هذه الصفة هي كالمقصورة كان وضعها للصلاة فيها أحد أمراء الدولة التركية وهي لاصقة بالجدار الشرقي وبالجامع المكرم عدة زوايا على هذا الترتيب يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس وهي من جملة مرافق الطلبة (وفي) الجدار المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات القبلية عشرون بابا متصلة بطول الجدار قد علتها اقواس جصية مخرمة كلها على هيئة الشمسيات فتبصر العين من اتصالها أجمل منظر وأحسنه والبلاط المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات من ثلاث جهات على أعمدة وعلى تلك الاعمدة ابواب مقوسة تقلها أعمدة صغار تطيف بالصحن كله • ومنظر هذا الصحن من اجمل المناظر وأحسنها ، وفيه مجتمع اهل البلد ، وهو متفرجهم ومتنزههم كل عشية تراهم فيه ذاهبين وراجعين ، من شرق الى غرب ، من باب جيرون

الزوايا

ابواب الصحن

الى باب البريد فمنهم من يتحدث مع صاحبه ومنهم من يقرأ لايزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع الى انقضاء صلاة العشاء الاخرة ثم ينصرفون ولبعضهم بالغداة مثل ذلك، وأكثر الاحتفال انما هو بالعشي فيخيل لمبصر ذلك أنها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم لا يزالون على ذلك كل يوم وأهل البطالة من الناس يسمونهم (الحراثين) وللجامع ثلاث صوامع واحدة من الجانب الشرقي وهي كالبرج المشيد تحتوي على مساكن متسعة وزوايا فسيحة راجعة كلها الى اغلاق ، يسكنها أقوام من الغرباء أهل الخير والبيت الاعلى منها كان معتكف أبي حامد الغزالي رحمه الله، وثانية بالجانب الغربي على هذه الصفة ، وثالثة بالجانب الشمالي على الباب المعروف بباب الناطفيين (باب العمارة) وفي الصحن ثلاث قباب احداها في الجانب الغربي منه وهي أكبرها وهي قائمة على ثمانية أعمدة من الرخام مستطيلة كالبرج مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملونة يقال انها كانت مخزنا لمال الجامع وله مال عظيم من خراجات ومستغلات تنيف (على ما ذكر لنا) على الثمانية آلاف دينار في السنة وهي خمسة عشر الف درهم .

الشاميون والجامع

المآذن

قباب الصحن

وقبة أخرى صغيرة في وسط الصحن مجوفة مثمنة من الرخام قد الصق أبدع الصاق قائمة على اربعة اعمدة صغار من الرخام وتحتها شباك حديد مستدير وفي وسطه انبوب من النحاس يمج الماء الى علو فيرتفع وينثني كأنه قضيب لجين يشره الناس لوضع افواههم فيه للشرب استظرافا واستحسانا ويسمونه قفص الماء والقبة الثالثة في الجانب الشرقي قائمة على ثمانية اعمدة على هيئة القبة الكبيرة ، لكن اصغر منها وفي الجانب الشمالي من الصحن ، باب كبير يفضي الى مسجد كبير في وسطه صحن قد استدار فيه صهريج من الرخام كبير يجري الماء فيه دائما من صفحة رخام ابيض مثمنة قد قامت وسط

المشاهد

الصهريج على رأس عمود مثقوب يصعد الماء منه اليها • وفي الجانب
الشرقي من الصحن باب يفضي الى مسجد من أحسن المساجد وأبدعها
وضعا ، وأجملها بناء ، يزعمون أنه مشهد لعلي بن أبي طالب • يقابله
في الجهة الغربية في زاوية البلاط الشمالي من الصحن موضع هو
ملتقى آخر البلاط الشمالي مع اول البلاط الغربي مجلل بستر في
أعلاه وأمامه ستر ايضا منسدل يزعم أكثر الناس أنه موضع لعائشة
رضي الله عنها ، وأنها كانت تسمع الحديث فيه وذلك كله لا اصل له •
وانما ذكرناه لشهرته في الجامع ، وكان هذا الجامع المبارك ظاهرا

زخارف الجامع

وباطنا ، منزلا كله بالفصوص المذهبة ، مزخرفا بأبدع زخاريف البناء
المعجز الصنعة فأدركه الحريق مرتين ، فتهدم وجدد ، وذهب
أكثر رخامه فاستحال رونقه ، فأسلم ما فيه اليوم قبلته مع الثلاث
قباب المتصلة بها ، ومحرابه من اعجب المحاريب الاسلامية ، حسنا
وغرابة صنعة ، يتقد ذهبا كله وقد قامت في وسطه محاريب صغار
متصلة بجداره تحفها سويريات مفتولات فتل الاسورة كأنها مخروطة

القبلة والمحراب

لم ير شيء أجمل منها ، وبعضها حمر كأنها مرجان ، فشأن
قبلة هذا الجامع المبارك مع مايتصل بها من قبابه الثلاث واشراق
شمسياته المذهبة الملونة عليه واتصال شعاع الشمس بها وانعكاسه الى كل
لون منها حتى ترتمي الابصار منه أشعة ملونة يتصل ذلك بجداره القبلي
كله عظيم لا يلحق وصفه ولا تبلغ العبارة بعض مايتصوره الخاطر منه
والله يعمره بشهادة الاسلام وكلمته بمنه • وفي الركن الشرقي من
المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف
عثمان رضي الله عنه وهو المصحف الذي وجه به الى الشام وتفتح

ابواب الجامع

الخزانة كل يوم اثر الصلاة فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ويكثر
الازدحام عليه ، وله اربعة ابواب (باب) قبلي ويعرف بباب الزيادة
وله دهليز كبير متسع له اعمدة عظام وفيه حوانيت للخرزيين وسواهم ،

وله مرأى رائع ومنه يفضى الى داخل الخيل ، وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين وهي كانت دار معاوية رضي الله عنه وتعرف بالخضراء •

(وباب) شرقي هو أعظم الابواب ، ويعرف بباب جيرون •

وباب غربي ويعرف بباب البريد ، وبـاب شمالي ويعرف ببـاب الناطفيين ، وللشرقي والغربي والشمالي أيضا من هذه الابواب ، دهاليز متسعة ، ويفضي كـل دهليز منها الى باب عظيم كانت كلها مداخـل الكنيسة فبقيت على حالها ، وأعظمها منظرا الدهليز المتصل بباب جيرون

الدهليز الشرقي

يخرج من هـذا البـاب الى بلاط طـويل عريض ، قـد قامت أمامه خمسة ابواب مقوسة لها ستة اعمدة طوال ، وفي وجه اليسار منـه مشهد كبير حفيل كان فيـه رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما ثم نقل الى القاهرة وبازائه مسجد صغير ينسب لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وبذلك المشهد ماء جار ، وقد انتظمت أمام البلاط ادراج ينحدر عليها الدهليز وهو كالخندق العظيم يتصل الى باب عظيم الارتفاع ينحسر الطرف دونه سموا ، وقد حفته أعمدة كالجذوع طولا وكالاطواد ضخامة ، وبجانبي هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها الحوانيت المنتظمة للعطـارين وسواهم ، وعليهـا شوارع اخرى مستطيلة فيها الحجر والبيوت للكراء مشرفة على الدهليز وفوقها سطح يبيت به سكـان الحجر والبيوت • وفي وسط الدهليز حوض كبـير مستدير من الرخام ، عليه قبة تقلها أعمدة من الرخام ، ويستدير باعلاها طرة مـن الرصاص واسعـة مكشوفـة للهواء ، وفي وسط الحوض الرخامي انبوب صفر يزعج الماء بقوة فيرتفع الى الهواء أزيد من القامة ،

الفوارة

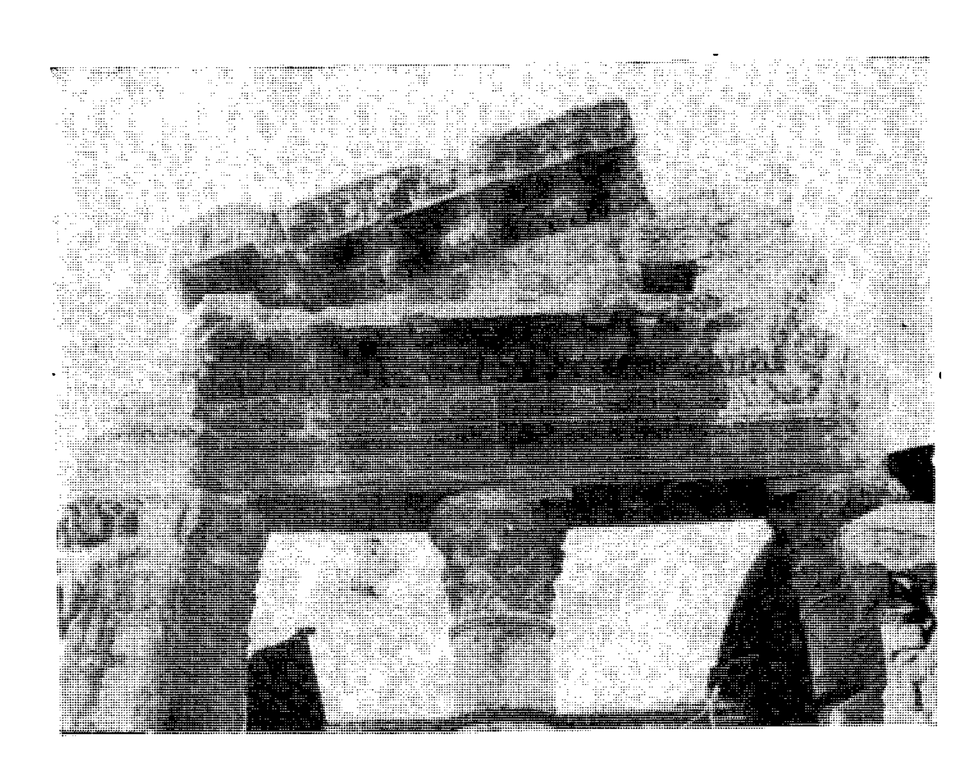
وحوله أنابيب صغـار ترمي الماء الى علو فيخرج عنهـا كقضبـان اللجين ، فكأنها أغصان تلك الدوحة المائية ومنظرها أعجب وابدع من أن يلحقه الوصف •

وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذي أمامه غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر فتحت ابوابا صغارا على عدد ساعات النهار ، وقد دبرت تدبيرا هندسيا ، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فم بازيين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما طاستين احداهما تحت اول باب من تلك الابواب ، والثانية تحت آخرها ، والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة وتبصر البازيين يمدان اعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الاوهام سحرا ، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين يلوح من الصفر ، لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار ، حتى تتغلق الابواب كلها وتنقضي الساعات • ثم تعود الى حالها الاول ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك في أن في القوس المتعطف على الطيقان المذكورة اثنتا عشرة دائرة من النحاس ، مخرومة وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة مدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعها فلاحت للابصار دائرة محمرة ثم انتقل ذلك الى الاخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها ، يعيد فتح الابواب وصرف الصنج الى موضعها وهي التي يسميها الناس المنجانة •

الساعة

ودهليز الباب الغربي فيه حوانيت البقالين والعطارين وفيه سماط لبيع الفواكه ، وفي أعلاه باب عظيم يصعد اليه على أبراج ، وله أعمدة سامية في الهواء ، وتحت الابراج سقايتان مستديرتان سقاية يمينا وسقاية يسارا ، لكل سقاية خمسة انابيب ترمي الماء في حوض رخام مستطيل •

الدهليز الغربي



بقايا الدهليز الغربي للاموي

الدهليز الشمالي

ودهليز الباب الشمالي فيه زوايا على مساطب محدقة بالاعواد ، هي محاضر لمعلمي الصبيان ، وعن يمين الخارج في الدهليز خانقة مبنية للصوفية ، في وسطها صهريج يقال أنها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، ولها خبر سيأتي ذكره بعد هذا ، والصهريج الذي في وسطها يجري الماء فيه ولها مطاهر يجري الماء في بيوتها ، وعن يمين الخارج أيضا من باب البريد مدرسة للشافعية في وسطها صهريج يجري الماء فيه ، ولها مطاهر على الصفة المذكورة وفي الصحن بين القباب المذكورة عمودان متباعدان لهما رأسان من الصفر مستطيلان قد خرما أحسن تخريم ، يسرجن ليلة النصف من شعبان فيلوحان كأنهما ثريتان مشتعلتان •

واحتفال أهل هذه البلدة بهذه الليلة المذكورة أكثر من احتفالهم ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم •

القراء

وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم كل يوم أثر صلاة الصبح لقراءة سبع من القرآن دائما ، ومثله اثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية ، يقرؤون فيها من سورة الكوثر الى الخاتمة ، ويحضر في هذا المجتمع الكوثري كل من لا يجيد حفظ القرآن ، وللمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم يعيش منه أزيد من خمسمائة انسان ، وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم ، فلا تخلو القراءة منه صباحا ولا مساء •

الحلقات والدروس

وفيه حلقات للتدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها اجراء واسع ، وللمالكية زاوية للتدريس على الجانب الغربي يجتمع فيه المغاربة ولهم اجراء معلوم ، ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة ، وأغرب ما يحدث به ، أن سارية من سواريه هي بين المقصورتين القديمة والحديثة لها وقف معلوم يأخذه المستند اليه للمذاكرة والتدريس ، أبصرنا بها فقيها من أهل اشبيلية يعرف بالمرادي ، وعند

فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحا يستنـــد كل انسان منهم الى سارية ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن ، وللصبيان أيضا على قراءتهم جراية معلومة ، فأهل الجدة من الآباء ينزهون أبناءهم عن أخذها ، وسائرهم يأخذونها ، وهذا من المفاخر الاسلامية ، وللايتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يأخذ منه المعلم له ما يقوم به وينفق منــه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم ، وهذا ايضا من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية ، كلها انما هو تلقين ، ويعلمون الخط في الاشعار وغيرها تنزيها لكتــاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو ، وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتب على حدة ، فينفصل من التلقين الى التكتيب لهم في سيرة حسنة ، ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخط لان المعلم له لا يشتغل بغيره ، فهو يستفرغ جهده في التعليم ، والصبي في التعلم، كذلك ويسهل عليه لانه بتصوير يحذو حذوه •

مظاهر الجامع

ويستدير بهذا الجامع المكرم اربع سقايات ، في كل جامع سقـــاية ، كل واحدة منها كالدار الكبيرة محدقة بالبيوت الخلائية ، والماء يجري في كل بيت منها وبطول صحنها حوض من الحجر مستطيل ، تصب فيه عدة انابيب منتظمة بطوله ، واحدى هذه السقايات في دهليز باب جيرون وهي أكبرها ، وفيها من البيوت نيف عن الثلاثين ، وفيهـــا زائداً على السقاية المستطيلة مع جدارهـــا حوضان كبيران مستديران يكـــادان يمسكان لسعتهما عرض الدار المحتوية على هذه السقاية ، والواحد بعيد عن الآخر ، ودور كل واحد منهما نحو الاربعين شبرا والماء نابع فيهما • والثانية (١) في دهليز باب الناطفيين بازاء المعلمين • والثالثـــة عن يسار الخارج من باب البريد • والرابعة عن يمين الخارج من بـــاب الزيادة •

(١) هذه قد اندثرت والثلاث الأخر باقيات .

قبر يحيى

وفيه مشهد رأس يحيى بن زكريا عليه السلام وهو مدفون بالجامع المكرم في البلاط القبلي قبالة الركن الايمن من المقصورة الصحابية ، رضي الله عنهم • وعليه تابوت خشب معترض من الاسطوانة وفوقه قنديل كأنه من بلور مجوف ، كأنه القدح الكبير ، لا يدرى أمن زجاج عراقي أم صوري هو أم غير ذلك•

صعوده إلى القبة

ومن أعظم ما شاهدناه من مناظر الدنيا الغريبة الشأن ، وهياكلها الغريبة البنيان المعجزة الصنعة والاتقان ، والمعترف بوصفها بالتقصير ، لسان كل بيان ، الصعود الى اعلى قبة الرصاص المذكورة في هذا التقييد القائمة وسط الجامع المكرم ، والدخول في جوفها ، واجالة لحظ الاعتبار في بديع وضعها مع القبة التي في وسطها كأنها كرة مجوفة داخلة في وسط كرة أخرى أعظم منها •

صعدنا اليه في جملة من الاصحاب المغاربة ، ضحوة يوم الاثنين الثامن عشر لجمادى الاولى سنة ٥٨٠ من مرقى في الجانب الغربي من بلاط الصحن ، كان صومعة في القديم ، وتمشينا على سطح الجامع المكرم وكله الواح رصاص منتظمة ، كما تقدم الذكر لذلك ، وطول كل لوح اربعة اشبار وعرضه ثلاثة اشبار ، وربما اعترض في الالواح نقص أو زيادة ، حتى انتهينا الى القبة المذكورة ، فصعدنا اليها على سلم منصوب والريح تكاد تطير بنا ، فحبونا في الممشى المطيف بها وهو من رصاص وسعته ستة اشبار فلم نستطع القيام عليه لهول الموقف فيه ، فأسرعنا الولوج الى جوف القبة ، على أحد شراجيبها ، المفتحة في الرصاص ، فأبصرنا مرأى تحار فيه العقول وتقف دون ادراكه هيبة وصف الافهام ، وجلنا على فرش من الخشب العظام ، حول القبة الصغيرة الداخلة في جوف الرصاصية على الصفة التي ذكرناها ، ولها

طيقان يبصر منها الجامع ومن فيه ، فكنا نبصر الرجال فيه كأنهم الصبيان وهذه القبة مستديرة كالكرة ظاهرها من خشب قد شد باضلاع من الخشب الضخام ، موثقة بمناطق من الحديد ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة ، وتجتمع الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب اعلاها ، وداخل هذه القبة وهو ما يلي الجامع المكرم خواتيم من الخشب منظم بعضها ببعض قد اتصلت اتصالا عجيبا ، وهي كلها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب مزخرفة التلوين بديعة القرنصة يرتمي الابصار شعاع ذهبها ، وتتحير الالباب في كيفية عقدها ووضعها لافراط سموها .

أبصرنا من تلك الخواتيم الخشبية ، خاتما مطرحا جوف القبة ، لم يكن طوله اقل من ستة اشبار في عرض أربعة وهي تلوح في انتظامها للعين كأن دورة كل واحد منها شبر او شبران ، الغاية لعظم سموها . والقبة محتوية على هذه القبة المذكورة ، وقد شدت ايضا باضلاع عظيمة من الخشب الضخام موثقة الاوساط بمناطق الحديد وعددها ثمان واربعون ضلعا ، بين كل ضلع وضلع ، اربعة اشبار ، قد انعطفت انعطافا عجيبا ، واجتمعت اطرافها في مركز دائرة من الخشب ، أعلاها ، ودور هذه القبة الرصاصية ثمانون خطوة وهي مائتا شبر وستون شبرا والحال فيها أعظم من أن يبلغ وصفها . انما هذا الذي ذكرناه ندبة يستدل بها على ما وراءها وتحت الغارب المستطيل المسمى النسر الذي تحت هاتين القبتين مدخل عظيم هو سقف للمقصورة بينه وبينها سماء خاص مزينة ، وقد انتظمت فيه من الخشب ما لا يحصى عدده ، وانعقد بعضها ببعض ، وتقوس بعضها على بعض ، وتركبت تركيبا هائلا منظره ، وقد ادخلت في الجدار كله دعائم القبتين المذكورتين ، وفي ذلك الجدار حجارة كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة ، لا تنقلها الفيلة ، فضلا عن غيرها ، فالعجب كل العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفرط السمو، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك ، فسبحان من الهم عباده الى هذه

الصنائع العجيبة ومعينهم على الثاني لما ليس موجودا في طبائعهم البشرية ومظهر آياته على ايدي من يشاء من خلقه لا اله سواه • والقبتان على قاعدةمستديرة من الحجارةالعظيمة، قد قامتفوقها أرجل قصار ضخاممن الحجارة الصم الكبار وقد فتح بين كل رجل ورجل شمسية واستدارت الشمسيات باستدارتها ، والقبتان في رأي العين واحدة • وكنينا عنها باثنتين لكون الواحدة جوف الاخرى والظاهر منها قبة الرصاص •

ومن جملة عجائب ما عايناه في هاتين القبتين أننا لم نجد فيهما عنكبوتا ناسجا ، على بعد العهد من التفقد لهما من أحد ، والتعهد لتنظيف مساحتهما • والعنكبوت في امثالهما موجود كثير ، وقد كان حقق عندنا ان الجامع المكرم لا تنسج فيه العنكبوت ولا يدخله الطير المعروف بالخطاف •

وقد تقدم ذكرنا لذلك في هذا التقييد فانصرفنا منحدرين وقد قضينا عجبا عجابا من هذا المنظر العظيم •

الأموي في القرن الثامن

وقد زار المسجد الرحالة ابن بطوطه ، في اوائل القرن الثامن ، ووصف المسجد ، وليس في وصفه اختلاف كبير عن وصف ابن جبير•

الحريق الأخير

اجدادنا الاولون كانوا أهل حزم وعزم ، وكانوا اصحاب فكر وبيان ، فكتبوا تاريخهم كله ، وسجلوا امجادهم ومعايبهم ، وأخبار جدهم وهزلهم ، فنحن نعرف عن القرون الاولى التي مر عليها أكثر من ألف سنة كل شيء كأننا نعيش فيها ، ونجهل من أخبار القرون الاخيرة كل شيء ، لا سيما القرن الماضي .

وهذا شيء عجيب ولكنه الواقع .

وأنت اذا اردت ان تعرف قصة حريق الاموي مثلا ، لم تجدها في تاريخ من التواريخ مع أن في دمشق مئات ممن شهدها بعينه .

لذلك اعتمدت في هذا الحديث على ما حدثني به استاذنا الاكبر الشيخ المعمر الجليل عبد المحسن أفندي الاسطواني ، وهو حفظه الله ، أعجوبة العجائب ، جاوز المئة(١) من السنين ولا يزال في حدة ذهنه وقوة ذاكرته ، وكثرة علمه ، وسرعة بادرته ، وحضور نكتته كما كان في شبابه . وعلى ما حدثني به الشيخ حمدي الحلبي حفيد علامة الشام الشيخ سعيد الحلبي ، وهو متولي الجامع الآن ومن أعلم الناس بتاريخه واحواله . كما اعتمدت على ما كتب العلامة الاستاذ الشيخ جمال الدين القاسمي ومختار بك العظم رحمهما الله . وهو وصف مختصر جدا نشره الدكتور صلاح الدين المنجد أحسن الله اليه بمقدار ما احسن الى تاريخ دمشق وآثارها ومخطوطاتها .

وبعد فهذه هي القصة :

كانت ضحوة يوم السبت رابع ربيع الثاني سنة ١٣١١ هـ (أي من

(١) جاوز الآن المئة والعشر ولا يزال ذهنه حاضرا ، وذاكرته قوية ، ولا يزال يرجع اليه ويستفتى مد الله في عمره .

نحو سبعين سنة قمرية) ، وكانت دمشق آمنة مطمئنة والناس منصرفون الى اعمالهم في الاسواق المطيفة بالاموي ، والنساء في بيوتهن الحافة بالجامع ، فما راعهم الا صريخ يصرخ ، كأنه النذير العريان : أن لقد احترق الاموي ، فترك التجار مخازنهم مفتوحة ووثبوا ينظرون ، وصعد النساء على السطوح ، وتراكض الناس من كل جهة ، واذا الدخان ينبعث من سقف الجامع ، ولم يكن في دمشق مصلحة اطفاء (وقد انشئت على أثر الحادث) وحار الناس ماذا يصنعون ، فاستبقوا الى سجاد المسجد ومصاحفه يخرجون ما يصلون اليه منها، وعمد بعضهم الى الماء يصبونه ، والى المعاول علهم يحصرون النار ، ولكن النار كانت أسرع منهم ، اذ كان خشب السقف قديما جافا ، وعليه من الاصبغة والادهان طبقات ، فما شم رائحة النار حتى التهب كله دفعة واحدة ،كأنما قد صب عليه البنزين ، وكانت الرياح في ذلك اليوم غربية شديدة ، فما مرت نصف ساعة حتى صار السقف كله شعلة واحدة ، وجعلت قطع النيران تتساقط من كل مكان ، فالتهب المسجد كله ، ولم يعد أحد يستطيع ان يقترب منه ، فوقفوا ينظرون وكأن النار التي تأكل مسجدهم تأكل قلوبهم ، ولكن العجز امسكهم وقيدهم ، وكانت عمد المسجد قديمة اكثرها مكسور ومربوط باطواق الحديد ، فتشققت من النار ، ثم هوى البناء كله ، وزلزلت الارض ، وكانت ساعة من ساعات الهول ، وامتدت النار تسوقها الرياح الغربية الى سوق القباقبية والقوافين وزقاق الحمراوي ، وانجلى الدخان عن الخراب الشامل ، لم يبق من الاموي الا المشهدان عند باب البريد ورواق الصحن ، عدا الرواق الممتد بين باب النوفرة الى مشهد الحسين ، فقد ناله الحريق فتضعضع ، وأصاب الحريق المنارة الغربية .

وامامي الآن صورة نشرها الدكتور المنجد للاموي بعد الحريق ، ما فيها الا جدار الحرم الشمالي (من جهة الصحن) والواجهة المثلثة

العالية ، أما السقف كله والقبة فلم يبق منه أثر ، ذهب المسجد كله في ساعتين ونصف الساعة ، المسجد الذي انفقت فيه الاموال والاعمار ، وعملت في بنائه الافكار والايدي الفا وثلاثمئة سنة ، ذهب كله في مئة وخمسين دقيقة فقط ، ذهب في سبيل نارجيلة •

ذلك ان عاملا من العمال كان يصلح رصاص السقف ، في المعزبة الوسطى من الجهة الغربية ، فأعجبه المنظر ، وهاج في نفسه الشوق الى نفس دخان ، فجاء بنارجيلة وأوقد نارا ليشعلها ، فأشعل النـار في الاموي •

خلت دمشق من مسجدها ، ولكن ما خلت النفوس من ايمانها ، وحط سقفه وجدرانه ، ولكن ما حط فرض الصلاة عن الناس ، وماذا يضر المصلي ان هوت قبة المسجد وامّحت روائعه ، وطمست نقوشه ، ومسجد محمد الذي بني على التقوى ، والذي كان مشرق النور عـلى الدنيا ما كانت له قبة ولا كانت فيه نقوش ، انما هو سقيفة من اللبن والخشب ، وماذا ان بقي بلا مسجدوالارض كلهاللمسلم مسجد ومصلى•

لذلك كانت الفاجعة في الاموي الضحى، وأقيمت الصلاة فيالاموي الظهر • أقيمت الصلاة ، اقامها العالم الورع الشيخ عبد الحكيمالافغاني في الصحن وراء البحرة والناس وراءه • فكانت النار لا تزال بقاياها في ارجاء المسجد ، وهم يركعون ويقولون : الله اكبر ، الله اكبر من الجامع ، فاذا ذهب الجامع فالله باق ، والصلاة باقية ، لا يشغل المؤمن عن صلاته شيء في الدنيا مهما كبر ، لان الصلاة لله ، والله أكبر •

صلوا في الصحن ،ثم عمدوا الى المشهد الغربي الذي بقي سالما ، فنقلوا اليه بعض مفروشات الجامع ، واقاموا له منبرا صغيرا للخطابة ، وعمروا سدة صغيرة للمؤذنين ، وصارت تقام الجمعة فيه ، وكان المشهد الثاني (المعروف اليوم بمشهد الغزي) وهو الآن بهـو الاستقبـال ،

مستودعا للوازم الجامع ، ففرغ ودفف وفرش وفتح بابه القبلي ، فصار المشهدان (القائمان على طرفي باب البريد) معدين للصلاة ، وكان المشهد الشرقي قد احترق كله ، ومشهد الحسين قد احترق بعضه ، فبذل الناس لاصلاحهما ، فجددا وأعدا للصلاة قبل حلول شهر رمضان •

ثم انصرف الناس الى تنظيف الجامع ، وكان من الانقاض المتراكمة كأنه تل عظيم ، وتناوبوا على تنظيفه ، يشتغل أهل كل محلة يوما ، يجيئون جميعا كهولهم وشبابهم ، اغنياؤهم وفقراؤهم ، يعملون بأيديهم ايمانا واحتسابا ، ينقلون التراب والحجارة ، ويتسابق الاغنياء الى اطعامهم ، فيتكفل أغنياء الحي باعداد الطعام للعاملين ، فيتغدون في المسجد ، فكان ذلك مظهرا رائعا للاخوة والبذل ، وغدا الناس كأنهم أسرة واحدة ، يعملون جميعا في بيت الله ، وينزلون ضيوفا عليه ، حتى اذا نظف المسجد من الانقاض ، الفت في كل حي لجنة لجمع المال لعمارة المسجد ، وهبت دمشق احدى هباتها المؤمنة العجيبة ، وتزاحم الناس على البذل ، فمنهم من خرج عن ماله كله ، ومنهم من أعطى نصف ماله ، وكل ساعد بعقله وبفنه وبصناعته ، والفقير عمل مجانا بيده ، وأنتم تذكرون ما صنعت دمشق في اسبوع التسلح القريب ، فكبروا ذلك عشر مرات تروا ما صنعت دمشق لبناء الجامع •

وكان الكشف وقدرت نفقات البناء بسبعين الف ليرة ذهبية ، واذا نظرنا الى القوة الشرائية لكل ليرة وجعلنا الخبز مقياسا وحسبنا سعره يومئذ وسعره اليوم رأينا المبلغ يعادل عشرين مليون ليرة من نقد هذه الايام •

ونظروا فاذا الاعمدة التي كان يقوم عليها سقف الحرم قد تكسرت وفكروا في أعمدة جديدة ، واختلف الرأي فيها ، من أين يؤتى بها وكيف تنقل ، ثم أخذوا برأي السيد عبد الله الحموي ، فقرروا ان تقطع الاعمدة من جبال المزة ، ولكن كيف يؤتى بها ؟

هنا تظهر عظمة هذا الرجل الذي لم يكن مهندسا ولم يكن متعلما •

لقد عرض عليهم ان يعمل عربة مستطيلة واطية تجرها الثيران ، لها ملاقيط من تحتها فهي تلتقط العمود ، وتحمله من المزة الى المسجد ، وشكوا في ذلك ، فخبرهم انه رأى مثلها في مقاطع الحجارة في ايطاليا، فأقروه على صنعها ، فصنعت بارشاده ، وصارت تحمل العمود الهائل من الاعمدة القائمة اليوم في الاموي وتأتي به يحف بها الناس والشباب بالعراضات والاهازيج •

ولما وصل العمود الاول وشكرت اللجنة للسيد الحموي ما صنع ، ضحك وقال لهم : اخبركم الآن بالحقيقة ، أنا لم أر مثل هذه العربة في ايطاليا ، ولا ذهبت اليها ولا الى غيرها ، ولكني خفت أن اقول لكم ، انها من اختراعي فلا تقبلوها مني فزعمت اني رأيتها في ايطاليا •

وهذه العربة لا تزال موجودة ، ارجو ان توضع في المتحف ، لتعرض دليلا على العبقرية الشامية •

وشرع في البناء سنة ١٣١٤ هـ ولم يبق في دمشق صاحب فن الا وضع فنه في عمارة المسجد ، ولا عامل الا قصر عمله على المسجد ، وكان يشتغل فيه كل يوم أكثر من خمسمئة عامل ، فما مرت سنتان حتى انجز بناء النصف الشرقي من المسجد وفرش بالسجاد وعلقت فيه الثريات والمصابيح وأقيم حاجز من الخشب من غربيه ووضع المنبر الى جنب محراب المالكية ، وافتتح في رمضان سنة١٣١٦ هـ في حفلة ضخمةحضرها الوالي والعلماء والوجهاء •

ثم بدىء بالقسم الآخر ، وكان اول ما بني منه محراب الحنفية ، وزخرفوه هذه الزخرفة التي ترى الآن وبلغت نفقات بناء المحراب كما خبرني الاستاذ الاسطواني الف ليرة ذهبية ، وقد لام الناس اللجنة على البداءة به ، فاحتجت بأنه لو لم يبدأ به لما بني •

وتم بناء القسم الاوسط من المسجد في منتصف شعبان سنة ١٣١٨ واكتمل البناء كله واحتفل بافتتاحه في ٢٨ جمادي الاولى سنة ١٣٢٠ بعد الحريق بتسع سنين فقط ٠

وبعد يا أيها القراء فان هذا المسجدالعظيم الذي يقطع السياح نصف كرة الارض ليشاهدوه ويعجبوا من عظمته وجلاله ، وهذه القبةالسامقة التي لا يطاولها بناء في دمشق ، بل تبدو العمارات معها كالصبية الصغار مع الرجل الطوال ، وهذا الزخرف وهذا الجمال ، كله من صنع أهل دمشق ، أنفقوا عليه من اموالهم ، وعملوه بأيديهم ، وان الذين هندسوه وعمروه كانوا جماعة من النجارين الشاميين الذين لم يدرسوا فيمدرسة ولم ينالوا شهادةفيالهندسة، الحمويومعاونوه والتواموملصواخوانهم، وان الذين نقشوه هذا النقش البارع الذي جاءعلى مثال النقش القديم وأربى عليه هم اولاد ابي نجيب الدهان الشامي العامي ، وانهم همالذين صنعوا هذه الشبابيك العجيبة الثلاثة التي هي فوق المحراب ، والثلاثة المقابلة لها ٠

لقد بنت دمشق هذا المسجد العظيم على قلة العلم يومئذ ، وضعف الادوات ، وفقد الآلات ، ليقوم دليلا على ان الايمان والاخلاص يصنعان كل شيء ٠

فاذا شككتم في ان الايمان يعمل العجائب ويأتي بالخوارق ، فهاكم قبة الاموي قائمة تنطق ، شاهدة بأن الايمان قوة تدحر القوي ، وكنز يزري بالكنوز ٠

ورحمة الله وتحياته وبركاته على كل من شارك بسلطانه أو بيده أو بفكره في اقامة هذا الصرح المبارك ، من لدن معاوية والوليد الى يوم الناس هذا ، وعلى كل من سيعمل فيه في الايام القادمات ، وجزاهم الله جميعا خير الجزاء ٠

الاصلاحات الجديدة

تقرير من مهندس الاوقاف
السيد مكين المؤيد

ان الفترة التي تؤرخ لها الآن تنحصر فيما بين عام ١٩١٩ ميلادية وعام ١٩٥٩ أي ابتداء من انتهاء الحرب العالمية الاولى .

ويمكن تقسيمها الى ثلاث مراحل . المرحلة الاولى وتبتدىء من عام ١٩١٩ لغاية عام ١٩٤٠ ، والمرحلة الثانية وتبتدىء من عام ١٩٤١ لغاية عام ١٩٤٩ ، والمرحلة الثالثة وتبتدىء من عام ١٩٥٠ لغاية عام ١٩٥٩ .

المرحلة الاولى

جرت اصلاحات المرحلة الاولى بمعرفة دائرة الاوقاف واشراف القائم بالنظارة على الجامع . وقد بلغت تكاليف هذه الاصلاحات نحوا من الفي ليرة عثمانية ذهبية . ومن اهم الاعمال التي تمت خلال هذه المدة : تبليط باحتي مدخل بابي البريد والنوفرة الداخليين بالرخام . وترخيم جدران باب البريد ، وتركيب البلاط القاشاني ، وتبديل العمود الكبير في باحة الاموي في الجهة الشرقية الشمالية . واصلاح المنارة الغربية اذ رممت الدرابزينات وجدد الهلال النحاسي . وتركيب سطرين من القاشاني المنقول من قبة الوزير (أقوش النجيبي) في السويقة ، فوق محراب الحرم الكبير يتضمنان آيات قرآنية من سورة الرحمن . ونزع الكلسة عن الفسيفساء واكمال النواقص في مدخل باب البريد والرواق

الغربي • وعمل مجاري الماء في الجملونات (سطح الحرم) من (بيتون) مسلح بدلا عن مجاري الرصاص التي كانت ترشح منها المياه الى خشب السقف • واصلاح الرخام المشقف في محراب الشافعي • وتبليط القسم الشرقي من ارض باحة الصحن ببلاط احمر مزي •

المرحلة الثانية

اشتركت في الاصلاحات في هذه الفترة دائرة الاوقاف ومديرية الآثار وقد بلغت تكاليفها مئة الف ليرة سورية تقريبا • وهذه أهم الاعمال التي تمت خلال هذه الفترة :

في عام ١٩٤١ تم فك القسم العلوي من المثمن المتصدع من منارة سيدنا عيسى (أي الشرقية) ، واعادته مجددا كالسابق،وتم ترميم وتصليح وتكحيل القسم السفلي من بقية المنارة ، وجددت الدرابزينات الخشبية وفي عام ١٩٤٢ تم اصلاح الفسيفساء الآيل للسقوط في قوس الزاوية الشمالية الغربية • ومن عام ١٩٤٣ لغاية عام ١٩٤٧ تمت الاعمال الآتية :

أ ــ بعد تدعيم الجدران وتأمين الاخطار وتعليق الاقواس العلوية والسفلية في الباحة ، من جدار الرواق الشمالي لجهة الشرق • فك القسم الاول المتداعي المائل •

ب — فكت العضادة الحجرية المتصدعة ، والاقواس في الزاوية الشرقية ، وكشف سقف الرواق الخشبي • وفكت الاحجار العاطلة من اساسات الجدران •

ج — اعيد البناء كما كان بعد ازالة الاحجار المفتتة والمتصدعة والعاطلة ، واعيدت العضادة والاقواس • وجرى تركيب العمود السفلي الكبير مجددا بدلا عن القديم البالي • كما جرى تبديل العمود العلوي الصغير مجددا بدلا عن القديم •

ثم فك القسم الثاني المتصدع من الجدار الشمالي المذكور . ثم اعيد بناؤه من جديد .

واخيرا فك القسم الثالث من الجدار المذكور الواقع خلف الرواق عند بيت المؤذنين وازيل القسم العاطل منه واعيد مجددا بعد ترميم وتصليح الاساسات .

ومن ١٩٤٨ الى ١٩٤٩ تمت الاصلاحات الآتية :

كشف قسم من الممر الذي عثر عليه تحت باحة باب النوفرة الخارجية وتحرر من الردم واصلحت جدرانه وسقفه . وتم هدم الجدار الخارجي الواقع جنوبي مدخل النوفرة نظرا لتصدعه واعيد بناؤه مجددا . ثم جرى اصلاح الجدار المقابل الواقع شمالي مدخل النوفرة خلف مشهد الحسين وتم تكحيله . ورممت الواجهة الخارجية لمدخل النوفرةوكحلت بالاسمنت . واخيرا جددت الاعمدة الاربعة المتصدعة في الزاويةالشمالية الغربية للرواق مع قواعدها .

المرحلة الثالثة

وتبتدىء من ١٩٥٠ الى نهاية ١٩٥٩ واعمال هذه الفترة جرتبمعرفة مديرية الاوقاف في دمشق وتحت اشراف مديرية الآثار . وقد بلغت تكاليفها ٣٦٥ الف ليرة تقريبا . ومن أهم الاعمال التي تمتخلال هـذه الفترة الاعمال الآتية : في عام ١٩٥٠ هدم جدار المشهد الشرقي للحرم (الشهير بالسفرجلاني) المتصدع من جراء الحريق واعيد بناؤه مجددا مع تجديد اساساته ، ثم جرى تبليط ارض المشهد المذكور واصلح محرابه وانشىء به موضأ وخزان للمياه .

وفي عام ١٩٥١ فكت الاقواس الثلاثة العاطلة في الرواق الشمالي

القسم الشرقي منه ، وابدل العمودان الحجريان العاطلان بعمودين كبيرين وتم تجديد الاساسات • ثم اعيدت الاقواس وما فوقها • وجرى تجديد البابين الخشبيين في مدخل النوفرة واعيدت الزخارف النحاسية واكملت نواقصها ، وجرى تصليح الباب الكبير الوسطاني •

وفي عام ١٩٥٢ عملت تروس خشبية مزخرفة مع البلّور الملون في قوس باب النوفرة ، وباب المسكية الكبيرين ، واعيد سقف القسم المنتهي اصلاحه من الرواق الشمالي وذلك من خشب مجدد ، ورصاص اعيد صبه مجددا مع الدهان الزياتي كالاصل ، واعيد الفسيفساء الى الاقواس الثلاثة • واعيد محراب مشهد الدخولية (الغزي) المتهدم من خيوط عربية رخامية كالسابق • واعيد اصلاح المشقف في محراب المالكي ضمن الحرم •

وفي عام ١٩٥٣ فكت الاقواس العلوية المزدوجة الثلاثة في الرواق الشرقي وجرى تبديل العمودين الصغيرين العاطلين ثم اعيدت الاقواس كالسابق تماما • ثم نزعت كلسة الجدران في رواق مشهد الحسين من جهة الباحة واصلحت اماكن العطل المتعددة وصبت عتبات النوافذ بالاسمنت وجدد منجورها ، وجرى تبليط ارض مشهد الوضوء •

وفي عام ١٩٥٤ اكمل نزع كلس جدران الرواق والاقواس والغيت نهائيا واظهر الحجر الطبيعي بعد لقطه وتكحيل فواصله • ودهنت اسقف الاروقة بالدهان الزياتي ، وجدد باب العمارة الخشبي العاطل واعيد اليه زخرفة النحاس واكملت نواقصه • اصلحت عضادات الرواق الشمالي المنقوشة كالاصل ، وتم اصلاح مأذنة التوقيت بجانب منارة العروس ، وتم تبليط الباحة الخارجية امام مدخل النوفرة من رخام وحجر اسود وشعيرة حجرية ، وجددت نوازل المطرية من الجهة الشرقية من بواري حديد عوضا عن قساطل الفخار البالية وجرى تبديل عمود (الغرانيت) الكبير المتصدع والمقيد بطوق حديدي بعمود آخر نقل من جامع تنكز •

وفي عام ١٩٥٥ تم تبديل عمودين كبيرين عاطلين في الرواق الغربي بعمودين (غرانيت) كالذي تم في عام ١٩٥٤ سابقا احدهما اخذ من ارض الصحن والثاني جلب من اللاذقية وجددت القواعد الحجرية لهذه الاعمدة بعد تجديد الاساسات ، وتم اصلاح فسيفساء بعض اقواس الرواق الغربي واكملت نواقصه . واكمل بناء القسم العلوي من الزاوية الشمالية الغربية من الرواق . وجدد السقف الخشبي العاطل من مشهد الوضوء وصب البيتون المسلح بظهر السطح ، ودهن السقف الخشبي المذكور بدهان زياتي . وجددت ستة اعمدة صغيرة في القسم العلوي من الرواق .

وفي عام ١٩٥٦ تم اصلاح الرخام المشقف والمزخرف الكائن في العضادة الشمالية من باب البريد واكملت نواقصه . وتم تجديد نوازل المطرية في القسم الغربي عوضا عن السيالات الفخارية البالية . وتم تكليس واجهة باب البريد الخارجية . وتم تكحيل القسم الحجري بالاسمنت ، وتم تطبيق جفت الحرم جهة الصحن مع صب بيتون مسلح ودهان زياتي للجفت المذكور مع متابعة تصليح الفسيفساء العاطل .

وفي عام ١٩٥٧ فك الرخام المزخرف المشرف على السقوط والمشوه في جدران مدخل باب النوفرة الداخلية ، واعيد بصورة منسقة بعد ابعاد العاطل منه والاستعاضة بالرخام المجدد ، وتم فتح الباب الذي وجد مخفيا تحت الرخام القديم وهو باب صغير لجهة مقام الحسين . وتم تجديد البابين الجانبيين لمدخل باب البريد من خشب مجدد ، واعيدت الزخارف النحاسية والنقوش الاثرية واكملت النواقص مجددا . وتم اصلاح وترميم السلالم الحجرية في المناور الثلاثة . وفكت الآيات القرآنية المنقوشة في الحجر في جدار الرواق الغربي واعيد تركيبها واكملت نواقصها مع المحافظة على وضعها الاثري . واصلحت قبة (الخزنة) الغربية مع تكحيلها بالاسمنت وتزريقها بالكلس والمونة وصبت الواح رصاصية مجددة لسطوحها الخارجية .

وفي عام ١٩٥٨ تم متابعة اصلاح الفسيفساء العاطل في اقواس الرواق الغربي ، وتم اصلاح الباب الخشبي الاثري الكبير في مدخل باب البريد ، وبعد حذف العاطل منه من (خشب او نحاس) أعيد كما كان في السابق حيث اعيدت اليه الزخارف والنقوش والخيوط النحاسية وتم اصلاح مدخل الكلاسة ، وتم نصب السقايل في مدخل باب البريد وبوشر باصلاح الدهان الزياتي العربي المزخرف في سقف المدخل حيث قد عفى عليه الزمن وغطي بطبقة كثيفة احالت لونه حتى أصبح مكمدا من جراء رشح مياه الامطار وتم متابعة فك اقسام الفسيفساء الآيل للسقوط في منطقة باب البريد القسم العلوي واعادتها بعد اكمال نواقصها كما كانت ٠ وتم اصلاح خشب سقف منطقة مدخل باب البريد ، وجدد صب رصاص السطح ، وصبت مجاري مسلحة من اسمنت ، وعملت زريقة داخلية لسقف المدخل (زلحفة) سلحفاة لمنع دلف المياه نهائيا وقد ابدل العمودان الصغيران في القسم العلوي في مدخل باب البريد ٠

وفي عام ١٩٥٩ متابعة في الدهان الزياتي لسقف باب البريد ، ومتابعة في اصلاح وترميم واكمال فسيفساء المكان المذكور الآيل للسقوط ٠

واثناء سير العمل نفدت قطع الفسيفساء المتوفرة في الاموي والمجموعة في المستودع من بقايا القطع المتساقطة قديما من الجدران ٠ وكادت ان تتوقف اعمال اصلاح الفسيفساء من جراء فقدان القطع (خرزات) ورغم التحري في المدينة عن امكانية صنعه حديثا ومخابرة الدول الغربية عن طريق مديرية الآثار لم تفلح المساعي ولم تؤد الى نتيجة مفيدة ٠ فصممت مديرية الاوقاف انتاجه محليا بواسطة خبراء محليين ، وبعد جهود كبيرة تم انشاء معمل زجاجي صغير ، وانشئت ورشة فنية تمكنت من انتاج فسيفساء مجدد مماثل للقديم (البلور فقط) ولا تزال المساعي مستمرة

لانتاج فسيفساء من البلور المطلي بالذهب والفضة ، هذا وان قطع الفسيفساء هي عبارة عن قطع بلورية خاصة الصنع ومختلفة الالوان وقطع بلورية اخرى مطلية بالذهب والفضة وقطع رخامية ملونة ، ولا يتجاوز قياس القطعة أي الخرزة ١×١ سم . وان المساعي التي تبذل لانتاج جميع انواع الفسيفساء تبشر بالنجاح قريبا .

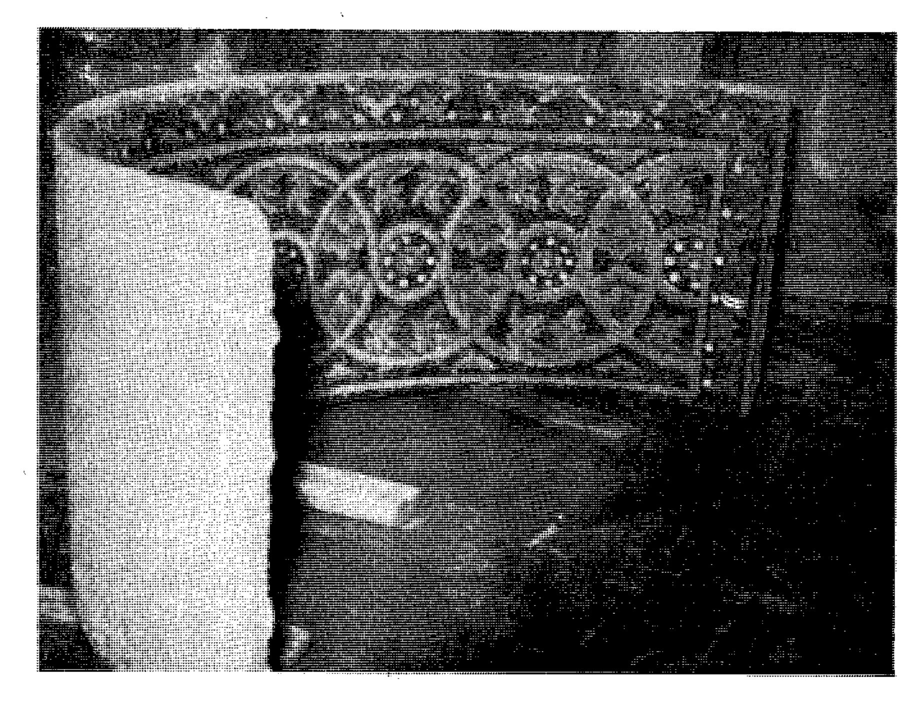
ومن الاعمال التي هي قيد العمل الآن توضيب وتحضير قواعد واعمدة قبة التوقيت لاعادتها لشكلها الاثري القديم وازالة الغلاف الحجري التركي الذي انشيء حولها .

وختاما : يتضح من موجز الاعمال الجارية بان جامع الاموي كان بحاجة لاصلاحات ضرورية جدا . خصوصا في القسم الشمالي منه ، أي في الصحن والاروقة والمشاهد . وقد ازيل العطل والخطر من كافة الجهات المتصدعة ، وبقي اجراء الاعمال المتممة والتي لم تعد تتعلق في متانة البناء ، وأهمها اصلاح الفسيفساء في كافة انحاء الجامع واكثرها ضرورة الموجود في باب السنجق ، واصلاح محاريب الحرم ، حيث تضررت من الرطوبة . والسدة ودهانها الزياتي العجمي . وتبليط ارض الصحن والاروقة وخلافها من الاعمال التكميلية كالزخارف الرخامية والخشبية والجصية .

وتقدر تكاليف هذه الاعمال بمبلغ مليون ونصف المليون ليرة سورية هذا عدا عن تكاليف مشروع تحرير حول الاموي الذي هو قيد الدراسة لدى امانة العاصمة .



▲ من مناظر الفسيفساء ▼





العمال يجددون الفسيفساء

خاتمة

تبين أن حرائق الاموي كلها (الا الاخير منها) انما امتدت اليه من البيوت الملاصقة له ، التي تستر جماله ، وتخفي عظمته ، وتشوه منظره وتعرضه للخطر ، مع انه لا يتصل به الآن من جهة الحرم الا دكاكين واطية من الخشب واللبن، لا تكلف ازالتها الا القليل ، هي دكاكين الحذائين في السوق الضيق (١) ودكاكين (القباقبية) التي توقد فيها النار طول النهار، فاذا ازيلت انكشف سور الحرم كله ، وظهر الباب القبلي القديم • وهذا الاقتراح الاول •

الثاني — ان لكل باب من الابواب دهليزاً ،واكبرها ما كان من جهة النوفرة ، وقد كشف من سنين بالمصادفة ان درج النوفرة لم يبن على ارض حرة ، بل ان تحته قاعة مبنية ، فلو حول الطريق بعد ازالة دكاكين القباقبية ، حتى امتد موازيا للجدار القبلي ، وأزيلت ادراج النوفرة واظهرت هذه القاعة ، وجعل لها باب ليزورها السياح والناس ، لكان منها منفعة للدارس ومورد للدولة •

ولقد كان من الشائع ان تحت الاموي معبدا للصابئة ، ذكر ذلك ابن تيمية في بعض كتبه ، والصابئة قد تطلق على طوائف من الوثنيين كأصحاب المعبد الاول • فاذا امتد الحفر من تحت الدرج ، ظهر المعبد ، كما ظهر بالمصادفة ، من سنين ، ان تحت جامع بيروت جامعا آخر وان تحت كل عمود عمودا آخر •

الثالث — وهذا طلب بعيد الاجابة ، هو ان دمشق أقدم المدن المسكونة

(١) كلمة السوق مؤنثة ويجوز تذكيرها والدرج جمع درجة فهي مؤنثة ولكني اتبعت الاستعمال الشائع .

اليوم على ظهر الارض ، لا خلاف في هذا ، وكلما حفر أرضها للبناء أو للمجاري ظهرت آثار مطمورة ، من أحدث ما ظهر منها الاعمدة التي كشف عنها في طريق الباب الشرقي ، وأخطأت دائرة الآثار فرفعتها فجعلتها فوق الارض ، مع ان الواجب تركها على العمق الذي ظهرت فيه ليتبين ما طرأ على ارض المدينة من ارتفاع •

واذا كانت الحفريات قد أظهرت في مدينة بابل ثلاث مدن بعضها فوق بعض (رأيت ذلك بعيني) فان دمشق اناقتطعت منطقة منهاكالمنطقة التي بين نهاية ما فتح من شارع معاوية والباب الشرقي والسور الجنوبي واخليت واجريت فيها حفريات لظهرت ست مدن بعضها فوق بعض ، ولتغيرت دراسة التاريخ القديم ، ولكان من ذلك أعظم منطقة أثرية في العالم ، وكان لنا منه مورد مالي لا ينقطع ، ولوجدنا تحفاوكنوزا لاتقدر قيمتها •

وليبدأ الحفر من الخراب، ومعلوم ان هذه البقعة سميت بـ (الخراب) لانها تخربت على عهد تيمورلنك لا جزاه الله خيرا ، وانها تظهر صحون الدور القديمة وبركها ، بأقل حفر يكون فيها •

وتحت ذلك طبقات اسلامية ، ثم طبقة رومانية ، ثم طبقات الله اعلم بها •

والرابعة ـ ان يفتح من باب الاموي ، شارع مستقيم الى ظاهر البلد ، واقرب وسيلة الى ذلك ، هي شق الطريق من باب العمارة الى شارع بغداد وأكثره مفتوح والبيوت الباقية في طريقه من البيوت الرخيصة ، وفي فتحه نفع لتلك الاحياء ، وما يؤخذ من المالكين من (رسم الشرفية) يقوم بنفقات الفتح ويعطى ارباب البيوت المهدومة بدلا منها في المساكن الشعبية ، كما كان عند فتح شارع البحصة •

وانا أشكر الاستاذ عبد الرحمن الطباع الامين العام لوزارة الاوقاف أن أشار بتأليف هذا الكتاب وللاستاذ ظهير الكزبري مفتشها العام ان أشرف على اخراجه .

واشكر الاستاذين عبد القادر العاني وحمدي الحلبي على ما أمداني به من اخبار المسجد في عهده الاخير التي لم يدونها التاريخ .

واشكر الاستاذين صلاح الدين المنجد ومحمد احمد دهمان على ما استفدته من مباحثهما ومنشوراتهما .

واشكر الاستاذين عبد القادر الريحاوي مفتش الآثار وابا الفرج العش على نظرهما في الكتاب وعلى ما ابدياه من ملاحظات .

واشكر كل من يتفضل فيدلني على نقص فيه أو يرشدني الى خطأ لا سيما في الارقام التي لا آمن عليها التحريف عند الطبع .

والحمد لله من قبل ومن بعد .

حاشية : وقف الدكتور صلاح الدين المنجد على (ضبط التحقيق) في حريق الاموي سنة ٧٤٠ محفوظ في جامعة ليدن ، قدم لها مقدمة قيمة ونشرها في مجلة المجمع العلمي الجزء (١) المجلد (٣١) ثم أفردها برسالة على حدة فليطلع عليها من شاء الوقوف على أسرارها .

من آثار المؤلف

آ ـ الكتب التي نفدت

١ ـ في بلاد العرب ١٩٣٩ م
٢ ـ من التاريخ الاسلامي ١٩٣٩ م
٣ ـ رسائل الاصلاح ١٣٤٨ هـ
٤ ـ بشار بن برد ١٣٤٨ هـ
٥ ـ رسائل سيف الاسلام ١٣٤٩ هـ
٦ ـ الهيثميات ١٣٤٩ هـ
٧ ـ عمر بن الخطاب (جزءان) ١٣٥٢ هـ
٧ ـ في التحليل الأدبي ١٣٥٣ هـ
٩ ـ كتاب المحفوظات ١٣٥٥ هـ

ب ـ الكتب التي صدرت حديثاً

١ ـ أبو بكر الصديق (طبعة ثانيـة) ١٣٧٢ هـ
٢ ـ قصص من التاريخ ١٩٥٧ م
٣ ـ رجال من التاريخ ١٩٥٧ م
٤ ـ صور وخواطر ١٩٥٨ م
٥ ـ قصص من الحياة ١٩٥٩ م
٦ ـ في سبيل الاصلاح ١٩٥٩ م
٧ ـ دمشق ١٩٥٩ م
٨ ـ مقالات في كلمات ١٩٥٩ م
٩ ـ سلسلة حكايات من التاريخ ١٩٥٩ م
١٠ ـ أخبار عمر ١٩٦٠ م
١١ ـ من حديث النفس ١٩٦٠ م
١٢ ـ نفحات من الحرم ١٩٦٠ م
١٣ ـ هتاف المجد ١٩٦٠ م
١٤ ـ الجامع الاموي ١٩٦٠ م

ج ـ تحت الطبع

١ ـ في اندونيسيا
٢ ـ فصول اسلامية
٣ ـ في الهند والسند
٤ ـ مع الناس
٥ ـ فكر ومباحث
٦ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي (تحقيق)

تصويب

وقعت أخطــاء منها (المسلمون) في السطر (١٥) من الصفحة (٤) صوابها (المسلمين) و (واولوا) في السطر الاول من الصفحة (٤٩) صوابها (وأدلوا) •